

محمد الشامي

رسائل وأسرار

أفقا



إقرأ

تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: عادل الغضبان

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فسي 19 / رجب / 1444 هـ
فسي 10 / 02 / 2023 م
سرمد حاتم شكر السامرائي



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم و تفكير الغد

م. سمر حاتم شكر

محمد النابغة

رسائل وأسرار

اقرأ ٣٣٣

دار المعارف بمصر

أقرأ ٣٣٣ - سبتمبر سنة ١٩٧٠

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م.

كنت في ألمانيا في أغسطس ١٩٣٩

هبط بنا القطار من سان موريتز إلى زيوريخ . ثم مدينة بال . وفي محطة بال افترقنا .. أما أصدقائي فقد هزوا رؤوسهم وأكدوا لي مرة أخرى أنني مجنون ، ثم هزوا يدي بحماسة وركبوا القطار إلى باريس . وركبت أنا القطار إلى برلين .

كان ذلك في يوم ٨ أغسطس ١٩٣٩ . وكانت الصحف الإنجليزية والفرنسية تنشر في كل يوم أخبار حشد الجيوش الألمانية والاستعدادات العسكرية الهائلة التي كانت تجري في ألمانيا تحت ستار إجراء المناورات ، وكان كل واحد يتكلم عن الحرب ، وألا مفر من وقوعها الآن ، لأن هتلر كان يعرف أن الاستعدادات الحربية تسير في إنجلترا وفرنسا بخطوات واسعة .. وكل شهر يمر يزيد من قوة الحليفتين ، إذن ... إما الحرب الآن وإما لا حرب على الإطلاق .

هكذا كان هتلر يفكر .. أو هذا ما زعموا أنه تفكير هتلر ! ازدحمت إذن إشاعات الحرب وقرب وقوعها ، وكانت تنقلات الجيوش الألمانية وحشدتها على الحدود الشرقية تجاه بولندا يزيد في قوة الإشاعات .

وودعني صاحب الفندق في سان موريتز وهو يرجو لي السلامة ويقول إنني مجنون .

ونصح لي صديق سويسري بأن أنتهز الفرصة وأتعلم اللغة الألمانية في أثناء اعتقاله هناك . ثم قال : هذا إذا خرجت حياً من الاعتقال ! وقال موظف كوك وهو يناولني دفتر تذاكر السفر إلى برلين :

نصيحتي إليك إذا كنت من أنصار طعام الفطور الإنجليزي أن تأخذ معك حاجتك من الزبدة والبيض !

وقالت فتاة سويسرية كنا ندعوها «أبو فصادة» أو «أم فصادة» لكثرة حركاتها : تذهب إلى برلين الآن ؟ لا بد أن تكون شجاعاً .

ولكنني لست شجاعاً ، ولم تخطر لي الشجاعة على بال . وأصدقائي الذين يعرفونني جيداً يستطيعون أن ينفوا عني تهمة الشجاعة بكل تأكيد . والمسألة وما فيها أنني سئمت باريس ، فغادرتها إلى سويسرا ، وسرعان ما سئمت هذه أيضاً ، لأن سان موريتز في الصيف غيرها في الشتاء .

وكنت على موعد - منذ الشتاء الماضي - مع بعض أصدقاء لي في أسكتلندا على أن نذهب معاً إلى النرويج ، ولما تأخرت أنا عن الذهاب في الموعد المتفق عليه أبرقوا إلى أنهم أبحروا فعلاً إلى النرويج .

وفي ساعة ملل قررت السفر إلى برلين ، ومنها إلى فيينا ، ثم بودابست . وبعدها أعود إلى مونيخ وسالزبورج ، ثم باريس ومرسيليا والباخرة ، ثم كنانة الله في أرضه من أرادها بسوء إلى آخره .

أى رحلة واسعة في ألمانيا ، وبعدها العودة إلى مصر . ولم يكن حديث الحرب يخيفني فما أكثر ما سمعنا عن الحرب وقرب قيامها ، ولم تقم حرب ! ولو أن كل واحد أقام وزناً لحديث الحرب وشائعاتها ، لما كان أحد غادر داره وسافر إلى أوروبا طوال العامين الأخيرين .

هكذا قلت لنفسى وأنا في القطار في طريقي إلى برلين .

* * *

ولم يكد القطار يغادر محطة بال السويسرية . حتى دخل ضابط ألماني ومعه موظفون آخرون من الألمان مهمتهم فحص جوازات السفر ، وسؤال الركاب عما يحملونه من العملة الأجنبية ، وتفتيش أمتعة المسافرين

وأنا لا أعرف من اللغة الألمانية سوى الأرقام من واحد إلى عشرة ..
وأما ما زاد على عشرة فيدخل في باب إنما العلم عند الله !
دخل الضابط وحيثاً بابتسامة وأطلق فيضاً من الشينات والخاءات ..

فقلت له : إنجليش ؟

أى هل تتكلم الإنجليزية ؟

قال : ناى .

قلت : فرانسيه ؟

قال : ناى .

وسكت وابتسمت .

وأشار هو إلى حقائبي وقال : سيجارتين ؟

قلت : ناى (أى لا) .

وابتسم سروراً من لغتي الألمانية ، وأطلق مقذوفات أخرى من
الشينات والخاءات ، ولما لم أرد ناولني جواز سفرى مؤشراً عليه . وابتسم
مرة أخرى ورفع يده وقال : هيل ..
ورددت عليه بهيل أحسن منها .
وانصرف الضابط وأصحابه .

* * *

وصلت إلى برلين في تمام الساعة الثامنة صباحاً ونزلت في فندق
إيدن . ومن هذه الساعة بدأت أشعر أن « جو الحياة » غير الجوى الذى
اعتدت ، وأنى في بلد .. غريب .. غريب من « الغرابة » .. من حيث
النظم والقواعد ومقررات الحياة !

طلبت طعام الفطور .

ثم أسرع باستدعاء الجرسون ، وقلت له : ما هذا ؟

قال : قهوة .

قلت : ولم لانكون شايأ ؟

ابتسم ابتسامة خفيفة وأجاب : لأنك طلبت قهوة .

— هب أننى كنت طلبت شايأ فهل كنتم تقدمون لى نفس هذا السائل الأسود ؟

والواقع أن هذه « القهوة » كان يمكن أن تكون أى شىء وكل شىء إلا قهوة .

أما الزبدة فكانت مصابة بأنيميا أو فقر دم شديد . حدثت فيها قليلا فذابت تحت وقع نظراتى ، واستحالت إلى سائل أصفر رقيق ضعيف .

والخبز .. ترحمت على خبز سويسرا ، فقد كان خبز برلين أشبه بمخدة النوم المحشوة بقطن قديم .. كان الرغيف الصغير مملوءاً بالكلاكيغ . وبينما أنا أحاول التوفيق بين معدتى طرفاً أول والسائل الأسود اللون والكلاكيغ طرفاً ثانياً ، دق الباب ودخل أحد موظفى الفندق وهو يقول : من فضلك ..

لقد ذكرت فى « الفيشة » التى حررتها ساعة وصولى إلى الفندق أننى مصرى من مواليد سنة كذا ، وصناعتى صحفى .. إلى آخره ، فهل أفضّل باستقبال أحد موظفى إدارة الصحافة الذى جاء ليكون فى خدمتى أثناء إقامتى فى برلين .

بهت . ووقفت كلكوعة فى فى .

لماذا؟ ومن الذى أخبر إدارة الصحافة— بعد أقل من ساعة من وصولى— أننى هنا ؟ ثم من أنا حتى توفد إدارة الصحافة أحد موظفيها ليكون « فى خدمتى » ؟

قال موظف الفندق إنهم مكلفون بحكم القانون إبلاغ البوليس فى الحال خبر وصول الزائرين «الممتازين» ، والصحفيون معدودون من هذا

الصنف ، والحكومة الألمانية يهتما بطبيعة الحال أن يطلع الصحفيون الأجانب على « الحقائق » ، ولهذا فهي تحرص على أن يصحبهم في أثناء إقامتهم في برلين موظفون يطلعونهم على الحقائق ويشرحون لهم كل شيء . الألفاظ مؤدبة جداً ، ولكن المعنى أوضح من كل بيان .

معنى هذا أن الصحفي الأجنبي مراقب في برلين لا ينقل خطوة إلا في صحبة رقيب .

وقلت لموظف الفندق إنني أعذر عن عدم مقابلة مندوب إدارة الصحافة ، لأنني أزور برلين بصفتي الشخصية ، لا بصفتي صحفياً وإن لي في برلين أصدقاء جئت لزيارتهم ، وليس في نيتي البحث أو الاطلاع على الحقائق ، وإن الأماكن التي سوف أزورها في برلين هي الجوكي كلوب والسيروز والكنيجن هذه ليست في حاجة إلى دليل ..

وجميعها من الأندية الليلية ، أي شارع عماد الدين برلين ! ولكن موظف الفندق نصح لي باستقبال مندوب إدارة الصحافة لكي أبلغه بنفسى رأيي هذا ، وقد كان .

ودخل المندوب ، وهو شاب وسيم الطلعة حسن البزة ، حيائي وكل ما في عينيه يعتذر عنه ويقول : الأوامر هي الأوامر .. وأنا عبد مأمور . أعدت عليه ما قلته لموظف الفندق .. فسألني من هم أصدقائي في برلين الذين أنوى زيارتهم ؟

قلت : هرريشارد إيشبرج مخرج السينما وزوجته كيتي يانتسن ممثلة السينما ، وهيلدا كروجر ممثلة السينما .

قال : أعرفهم .

وبدا عليه كأنما هذه الشخصيات ليست بالتي تؤمن على شخصي

الضعيف . أو ليست بالتى يركن إليها فى إصلاحى على « الحقائق » ..
لأنه ظل واقفاً ينتظر .

وفجأة فتح الله على فقلت : وربما زرت أيضاً صديقى أرنست فون
فالكاهين ..

وهو ليس صديقاً لى بالمعنى المفهوم . فقد كنت قابلته فى سان
موريتر . وتناولنا العشاء معاً مرتين . وهو ابن القائد الألمانى المشهور
فون فالكاهين ، ومن كبار رجال « الجستابو » أى البوليس السرى
الألمانى . ولهذا ذكرت اسمه .

وتحرك مندوب إدارة الصحافة وبدأ عليه الاهتمام وقال : هل تعرف
الكاتبين بارون فون فالكاهين ؟

قلت : نعم . وقد عرفته فى سان موريتر فى يناير ١٩٣٨ .

— إذن كل شىء على ما يرام .

وحينئذى الشاب بأدب ومشى إلى الباب .. وهنا وقع نظره على آلة
السينما الصغيرة التى أحملها معى دائماً فى رحلاتى . فوقف وقال :
سينما كوداك ؟

قلت : نعم .

قال بابتسامة : نصيحتى إليك ألا تستعملها فى برلين .. وإلا زارك
غبرى من رجال البوليس ، وربما ضايقك زيارته ، وقد لا تنفعك ساعتها
صداقتك بالكاتبين فون فالكاهين .

وشكرته وانصرف .

وتنفست ..

كل هذا بعد ساعة واحدة من وصولى إلى برلين .

وأحسست أن جو الحياة فى برلين « غريب » من حيث النظم
والقواعد ومقررات الحياة ، بل من حيث الدقة فى النظام ، وإلا فإذا

تقول في بلد يهبط فيه الصحفي الأجنبي فلا تمر ساعة واحدة على وصوله حتى يهبط عليه مندوب من إدارة الصحافة لكي يرافقه في أثناء إقامته بحجة الرغبة في إطلاع الزائر « الممتاز » على الحقائق .. أو بعبارة أخرى لكي يكون رقيباً عليه ؟

ففي أقل من ساعة واحدة أخذ البوليس السري علماً بوصولي ، فاتصل بإدارة الصحافة ، وهذه أوفدت مندوبها إلى الفندق .. هذه دقة في النظام .. تخيف !

وتركني مندوب إدارة الصحافة وأنا في حالة نفسية غير مستحبة . ومن خلال زجاج النافذة ألقيت نظرة على الشارع ، وكانت الساعة منتصف العاشرة صباحاً ، فإذا هو مقفر إلا من قليلين كانوا يسرعون في خطاهم مطرقى الرؤوس كأن على أكتافهم حملاً ثقيلاً من هموم الحياة .. وكانت السماء قاتمة اللون ، والجو مشبعاً برطوبة ثقيلة تزهق الأنفاس .

وعلى الباب الموصل بين غرفة النوم وغرفة الحمام وجدت إعلاناً مطبوعاً على قطعة من الورق المقوى (الكرتون) الأصفر اللون ، والإعلان في ثلاث لغات إحداها الفرنسية :

« لا تتكلم عن أى شيء يتعلق بالدفاع عن سلامة الدولة »

« لا تسأل عن أى شيء يتعلق بالدفاع عن سلامة الدولة »

« اذكر أن عقوبة الخيانة هي الإعدام »

« اذكر أن عقوبة الجاسوسية هي الإعدام »

.....

وهذه هي برلين الضاحكة الناعمة كما صورها لي بعض أصدقائي المتزوجين من ألمانيات .

* * *

وقمت إلى التليفون وطلبت أن أتصل بالهر ريشارد إيشبرج في برلين .

وبعد دقائق قالت عاملة التليفون إن هر إيشبرج يقيم الآن في ضاحية
تربين خارج برلين .

اتصلت به وبالسيدة زوجته - واسمها المعروف في عالم السينما
هو كيتي بانتسن - واتفقنا على أن يرسلنا إلى سيارتهما في الساعة السادسة
مساء . لكي أتناول معهما طعام العشاء في مصيفهما خارج برلين .
وكان ذلك يوم الأربعاء ٩ أغسطس .

* * *

وريشارد إيشبرج مخرج سينمائي كبير معروف ، بل لعله اليوم
أكبر مخرجي السينما في ألمانيا ، وبطبيعة الحال فإن زوجته كيتي هي التي
تقوم بالدور الأول في معظم الروايات التي يخرجها وهي - مثل زوجها -
ألمانية الأصل ، لكنها أمريكية التربية والجنسية .
وكنت قابلتهما لأول مرة منذ أربعة أعوام في فيينا ، ثم تقابلنا بعد
ذلك عدة مرات في مشاتي سويسرا وفي باريس ، وتوطدت بيننا أواصر
معرفة وثيقة .

* * *

قطعت السيارة المسافة بين برلين وتربين في نحو ساعة ... وإذا بنا
على أبواب غابة شاسعة الأطراف قال لي سائق السيارة إن مساحتها نحو
ثلاثة آلاف فدان ، وإنها ملك هر إيشبرج ، وقد اعتاد أن يقضي أشهر
الصيف في « كشك » للصيد تحيط به حديقة واسعة في وسط الغابة .
دخلت بنا السيارة إلى أن وصلنا أمام كشك الصيد ، فإذا بالكشك
« فيلا » كبيرة مشيدة من الخشب والطوب الأحمر .
وأقبلت سيدة الدار ترحب بي ، ومعها سيدة أكبر منها سنًا قد مَتْنِي
إليها وهي تقول : أمي .
وجلسنا حول مائدة وضعت تحت إحدى الأشجار الباسقة في الحديقة ،

وأقبل الخادم يحمل المرطبات .

وقالت كيتي إن ريشارد - زوجها - يتمشى في طرف الغابة مع مؤلفه . أى الكاتب الذى اعتاد أن يضع له سيناريو شرائطه السينمائية وإنه سيحضر بعد قليل .

وهنا التفتت إلى أمها فجأة وقالت : أنت صحنى كما فهمت .. فهل أنت مجنون ؟

لم أفهم ما هى العلاقة بين الصحافة والجنون إلا أن يكون مجرد الاشتغال بالصحافة جنوناً ، وهو رأى يجد له أنصاراً كثيرين . على كل حال هذه هى المرة الرابعة التى يقال فيها إننى مجنون ، لأننى دخلت ألمانيا .

وبدت الدهشة على وجهى .

وأقبلت الخادمة تحمل وعاء مملوءاً بقطع الثلج .

وسكنت الأم حتى لنصرفت الخادم وعادت تقول : الصحنى مفروض فيه أنه مطلع على مجرى الأمور . فكيف إذن تدخل ألمانيا ؟ ألا تعلم أن الحرب سوف تقوم بعد ثمانية أيام ؟

لم تقل « قد تقوم » بل قالت : « سوف تقوم » !

وقالت كيتي : إذا قلت لأحد إننا قلنا لك هذا الكلام ، فإنهم يقبضون علينا جميعاً ، ويضعوننا في أحد المعتقلات . فأرجوك ألا تبوح لأحد بما قلناه .

وعادت الأم تقول : لقد عرفت من كيتي قبل أن ألقاك أنك صديق

لها ولريشارد . ولهذا رأينا من واجبنا أن نذكرك أيها المصرى . اخرج من ألمانيا قبل يوم ١٥ ، لأن الحرب ستقع يوم ١٧ ... ونحن أنفسنا سنترك ألمانيا يوم الثلاثاء القادم ، ونذهب إلى سويسرا حيث نقيم إلى أن تنهى الحرب .

وأقبل في هذه اللحظة ريشارد إيشبرج ومؤلفه السينمائي ، وانقطع الحديث . وكان يدور همساً وبسرعة ، ومن طرف واحد كما لاحظ القارئ .

أما أنا فماذا أقول ؟

لقد بوغت .. الحرب إذن حقيقة واقعة . ولقد كان أصدقائي في سويسرا على حق يوم قالوا إنني مجنون ...
ولعل شيئاً من هذا كله كان يبدو على وجهي حين وقفت أهزّ يد ريشارد إيشبرج ، وأنحني أمام زميله المؤلف السينمائي ، لأنه التفت إلى زوجته وتبادلا نظرة خاطفة ذات معنى ، عرف منها الرجل أن حماته وزوجته قد أطلعتاني على السر .



جلسنا ... وكان بيدي قدح من « الفرموت » المزوج بالصودا .
هأنذا مصرى غريب ... جالس في وسط حديقة ألمانية في غابة ألمانية وسط ألمانين سوف يصبحون بعد أسبوع واحد خصوماً وأعداء لي وللوطن .

والشمس الغاطسة وراء الأفق ترسل من خلال ظلام الغابة خيوطاً حمراً داكنة اللون ، تتحرك بسرعة كأنها أشباح ترقص بين الأشجار .
وبين لحظة وأخرى يقول أحد الجالسين : ما أبغض هذا البعوض !
ويهوى بيده يحاول قتل بعوضة لدغته في وجهه أو ساقه أو يده .
والبعوض كثير الانتشار في الغابات المحيطة ببرلين .

قالت ربة الدار : وكيف نفرتيتي الآن ؟

قلت : ماذا ؟

قالت : نفرتيتي !

نفرتيتي ؟ ... احنا في إيه والا في إيه ؟ ! ...

قلت : ماها ؟ لعلها بخير .. أظن أنا الذى يحق لى أن أسأل هذا السؤال ، لأن نفرتيتى عندكم ، فى متحف برلين ..

وهنا ارتسمت علامات الدهشة على وجوه جميع الحاضرين ، واندفعوا يتكلمون معاً ، وفى وقت واحد ..

— نفريتيتى فى برلين ؟ .. مستحيل ! .. إنها فى مصر . فى المتحف هنا صورة منها فقط ... نفرتيتى أعيدت إلى مصر منذ عامين .. لقد كنت فى المتحف منذ يومين اثنين ...

هذا هو اللغز الذى سمعته فى برلين أيامئذ ! ... إن أهالى برلين يعتقدون أن تمثال نفرتيتى الملكة المصرية قد أعيد إلى مصر ، وأن متحف برلين قد احتفظ بصورة فقط من التمثال المذكور . هذا هو الاعتقاد السائد فى برلين ، وهذا ما يقوله موظفو متحف برلين للزائرين .. فماذا تفهم منه ؟

لقد قيل — يوم سعت مصر لاستعادة التمثال الثمين — إن هتلر قال لسعادة حسن نشأت (باشا) وزيرنا المفوض يومئذ فى برلين — قال له على سبيل الاعتذار عن عدم إمكان إعادة التمثال إنه — أى هتلر — أصبح عاشقاً مغرمًا بنفرتيتى حتى لا يستطيع عنها بعداً .. فهل أخذ هتلر تمثال نفرتيتى لنفسه وأقامه فى داره ، وقال لأهل برلين إن التمثال قد أعيد إلى مصر ؟ .. ربما !

بهذا ومثله جلسنا نتحدث .. عن نفرتيتى وعن السينما وفيلم السويس وفيلم مارى أنطوانيت ..

ولكن لا كلمة فى السياسة .. لأن أهل برلين يتحاشون الحديث فى السياسة ولو كانوا فى بيوتهم ، خوفاً من الجواسيس . ولكننى كنت قلقاً أريد أن أعرف تفاصيل ما سمعت . هذه الحرب ،

هل تقوم حتماً بعد أسبوع ؟
لقد جئت ألمانيا ومعى - كما قلت - تذاكر السفر من «كوك» إلى فيينا
وبودابست ، ثم عودة إلى مونيخ وسالزبورج ... وكان معى أيضاً مبلغ
كبير من « البنجو » وهو العملة المجرية ، اشتريته فى سويسرا لأنفقته فى
بودابست .

وليس من السهل أن « الحبط » مرة واحدة برنامج رحلتى مجرد
إشاعة عن قيام الحرب بعد أسبوع .
كان طبيعياً أن يضيق صدرى ، وأن أطلب معرفة التفاصيل ،
وعلى أى أساس قام اعتقاد كيتى وأنها بأن الحرب ستقوم حتماً بعد أسبوع ..
أريد أن أعرف هذا قبل أن أمزق تذاكر السفر وأسرع بالخروج من
ألمانيا عائداً إلى سويسرا أو برلين .

وملت على كيتى وكانت إلى جانبي وقلت همساً بين ضجة حديث
الآخرين : أريد أن أتكلم معك على انفراد .
وقبل أن تجيب لمعت أنوار سيارة أمام باب الحديقة الخارجى ،
ووثب ريشارد إيشبرج واقفاً وأسرع يستقبل الزائر القادم .
وقالت كيتى يانتسن : هر دكتور شبلتستوسر .
- من هو ؟

قالت كيتى من وراء كتفها ، وهى تسير بسرعة نحو الزائر القادم :
نازى كبير .. مدير الغرفة التجارية ووكيل الدكتور فرانك وزير
الاقتصاد .

دخل هر دكتور شبلتستوسر ، وهو ألمانى كما نتصور الألمان :
طويل القامة ، ضخم الجثة ، قوى الفكين ، وذقنه يكاد يكون مربعاً
متساوى الأضلاع .
ووقف الموجودون يحيطونه .

وقدمنى إليه رب الدار ، فأتى على نظرة وحيانى بدون اكتراث ..
ثم قال بإنجليزية مفككة الأوصال إننى ثانى مصرى قابله . أما المصرى
الآخر فهو عزيز قطة (بك) .

وجلسنا نتحدث ، أو على الأصح جلسوا هم يتحدثون بالألمانية ،
وانصرف أنا إلى قدحى المملوء بالفرموت والصودا وإلى طرد البعوض .
كانت الساعة قد جاوزت الثامنة مساءً ، وخيم الظلام على الحديقة ،
واقترحت ربة الدار أن تنتقل إلى قاعة الطعام .

والتفتت إلى تقول أو على الأصح تعتذر : لست غريباً عنا ..
العشاء بسيط جداً ، وهو مكون من (وذكرت اسم نوع من سمك المحار
شبيه بالجنبرى) ، ومن لحم الوعل Venison (وهو شبيه بلحم الغزال) وقد
اصطاده ريشارد هذا الصباح .. لقد دعوناك بدون تفكير لتناول العشاء ،
وكان يحسن بنا أن نعد لك عشاء مناسباً ، فهل أنت نادم على قبول الدعوة ؟
أجبت بما يناسب المقام ، ثم قلت إن هذه ستكون أول مرة أذوق
فيها لحم الوعل .

وتحسست فى الظلام معدتى أوصيها بحسن السير والسلوك .
وكنا قد وصلنا إلى قاعة الطعام ، وهى غرفة مستطيلة مفروشة
ببساطة تامة ، وجميع جدرانها تكاد تكون مغطاة تماماً برؤوس الوعل
المختلفة الأحجام التى اصطادها ريشارد لإشبرج صاحب الدار .

جلسنا حول المائدة وطافت الخادمة بأقداح مملوءة بحساء الجنبرى .
ثم جاء دور لحم الوعل ، وهنا أمرّ سريعاً بالتفاصيل .
وكان الشراب نبيذاً ألمانياً فاخراً صبوه فى وعاء بلورى كبير ،
وخلطوا به نوعاً آخر من نبيذ الرين ، ثم ألقوا فيه قطعاً صغيرة من
التفاح والليمون .

وذاب تدريجياً جو البرود الذى خيم علينا منذ حضر هر دكتور
شبلتستوسر وكيل وزارة الاقتصاد، وطاف الحديث بالمائدة ، وتبدلت

بالألمانية نكات ونوادر لم أفهم شيئاً منها طبعاً ، وقد كانت بين وقت وآخر تثير ضجة من الضحك الطويل .

وقالت كيتي - وقد أجلسني إلى جانبها - : إن بعض هذه النوادر عن زعماء النازي .

وأهل برلين - مثل أهل القاهرة - يسرهم كثيراً تبادل النوادر والفكاهات عن الزعماء والكبراء .

انهزت الفرصة وقلت همساً : أريد أن أتحدث معك على انفراد قبل أن أنصرف . حكاية الحرب هذه ..

ولمعت عيناها ببريق تحذير فسكت .

وقال وكيل وزير الاقتصاد وهو يجرع النبيذ من قدحه العميق :

هل تنوى الإقامة طويلاً في برلين ؟

قلت : أسبوعاً على الأقل ، وبعدها إلى فيينا فبودابست ، ثم أعود إلى فيينا ، ومنها إلى ميونيخ وسالزبورج ، وأطوف بمنطقة سالسكهمرجوت . وكان لي غرض من هذا الإسهاب ، هو أن أجعله يتكلم لعل وعسى يكشف لي عن شيء .

وقد نجحت .

حدّق في لحظة ، ثم انفجر في ضحكة عالية .

قال : تريد إذن أن تبقى بيننا شهراً أو أكثر ؟

قلت : ربما .

ثم أضفت مبتسماً : هل من اعتراض ؟ إن إعلاناتكم تملأ صفحات الجرائد المصرية والإنجليزية والفرنسية ، وهي تحض على زيارة ألمانيا .. (زروا ألمانيا .. زوروا قلاع الرين .. زوروا الغابة السوداء) .

قال : الإعلانات ! .. نعم ، أصبت . والغريب أن عدد السائحين في ألمانيا زاد في هذا الصيف عن كل عام سابق .

ثم أطلق مرة ثانية ضحكة طويلة اهتزت لها كتفاه العريضتان
ودمعت معها عيناه .

هذا وقد انقطع الحديث بين الآخرين .. مكتفين بالإصغاء إلينا .
وبعد فترة سكون قصيرة ، قال : ما هو رأيك في الفوهرر ؟
ولست يد كيتي ركبتى خفية من تحت المائدة ، كأنها ترجوئى
الحذر .

وتظاهرت بالتفكير لحظة ثم قلت : لقد فعل لألمانيا أكثر من أى
ألماني آخر .. وحتى الآن أثبت أنه فوق المستوى العادى للبشر ..
(والتعبير الذى استعملته بالإنجليزية هو Almost unhuman) ، ولكنى
أخشى عليه من الاندفاع بهذه السرعة المخيفة .
ولقيت إجابتي استحساناً عاماً ، وفى المقدمة وكيل وزارة اقتصاد
الريخ .

وهنأت نفسى على نجاحى فى التوفيق بين ضميرى وواجبى كمضيف
عند هؤلاء القوم .
وعاد هر دكتور سبلتستوسر يسألنى : أظنكم تتكلمون دائماً بالإنجليزية
فى مصر ؟

قلت : كلا بل نتكلم لغتنا العربية .. ونحن نتكلم الإنجليزية كما
نتكلم الفرنسية والإيطالية والألمانية ..
— وهل تحبون الإنجليزية ؟

— هم حلفاؤنا الآن . منذ عقدنا معهم المعاهدة فى أغسطس سنة

١٩٣٦ .

هز كتفيه وقال : المعاهدات ! .. وإذا قامت حرب ؟

— سنكون طبعاً في صف إنجلترا .
 وهنا أنقذ المؤلف السينمائي الموقف ، ووقف وفي يده كأسه وطلب
 منا أن نشرب في صحة رب الدار .
 وعاد الحديث مشتركاً كما بدأ .. والخدام تملأ الوعاء البلورى
 بالنبيد كلما خلا .. ورب الدار يملأ لنا الأقداح .
 وفجأة التفت إلى الهر دكتور — وكانت نشوة النبيد قد جعلته في
 حالة مرح ظاهر — وقال : لا أدري لماذا أقول لك أيها السيد المصرى ..
 ولكن اختصر إقامتك في ألمانيا ... بقدر الإمكان ..
 ثم عاوده الحذر فقال : لست أعنى أن الحرب واقعة لا محالة ..
 ولكن من يدري ..

قلت : وإذا وقعت الحرب ؟
 قال وهو يضحك : سوف يعتقلونك .. ربما توسطنا لك وجعلنا
 معتقلك هنا في دار كيتي .
 وابتسمت أنا وأجبت : إذن سأدعو يومها أن يطول أجل الحرب !

* * *

لم يبق أدنى شك عندي في أن احتمال قيام الحرب أمر جدى ، وأن
 الرجل برغم سكره لم يستطع أن ينسى حذره وإلا فاض بأكثر مما قال .
 وأدركت كذلك أن الرجل لا يعرف شيئاً عن مشروع أصدقائه
 أصحاب الدار ، وهو الخروج من ألمانيا والإقامة في سويسرا إلى أن تنهى
 الحرب .

وانتهت السهرة بين أحاديث مختلفة ، وقمنا نشكر ونستأذن أصحاب
 الدار في الانصراف .
 وقالت كيتي وأنا أنحنى فوق يديها : ألا تزال تريد أن تكلمني على
 انفراد ؟

قلت همساً : كلا ، وشكراً . فقد عرفت ما أريد .
ولما كان هر دكتور شبلتستوسر يسكن في برلين ، وكانت سيارته
معه . فقد دعاني إلى الركوب معه بدلا من تكليف سيارة أصحاب الدار
بإيصالى إلى فندق إيدن في برلين .
وفي السيارة استمر الحديث .

قلت له : إننى صحنى ، وإنه يهمنى بطبيعة الحال أن أعرف أين أنا؟
وهل الحرب مرجحة أو محتملة أو بعيدة الوقوع ؟
قال : كل شيء يتوقف على عناد بولندا ، أو قل عناد الإنجليز .
وسكت لحظة ثم قال : هناك مسائل يجب تصفيتها حالا ، وأنا
أعلم أن حكومتنا قد طلبت ردًا نهائياً من حكومة بولندا ، وأمهلتها إلى
يوم ١٥ .. فإذا لم يجىء الرد موافقاً ...
وسكت مرة أخرى .

قلت : ماذا ؟
قال : سوف تدخل جنودنا مدينة دانتزج ، ثم ننتظر الخطوة الثانية
من بولندا .

قلت : بولندا أعلنت أنها لن تتساهل في حقوقها في المدينة الحرة ،
وأنها ستدافع عنها بالسلاح .
قال : إذن تكون الحرب .
وأوصلنى إلى الفندق وشكرته وافترقنا .

* * *

كانت هذه هى الخطة المرسومة .. التحرش ببولندا وإعلان الحرب ،
وكان الموعد المقرر ١٧ أغسطس ، فإذا حدث حتى تأخر قيام الحرب
أسبوعين ؟

هنا حلقة مفقودة . والذي سأقوله الآن مبنى على الحدس والاستنتاج .

فلنعد بالذاكرة إلى منتصف أغسطس ، ومقابلات فون روبنروب مع الكونت شيانو في سالزبورج ، ثم ذهابهما معاً لمقابلة هتلر في برختسجادن .

ما الذى دعا إلى اجتماع وزير خارجية الريخ بوزير خارجية إيطاليا في ذلك الموعد ، وهو الموعد الذى كان معروفاً لدى أهل العلم في برلين بأنه موعد التحرش ببولندا وإعلان الحرب ؟

هل تدخلت إيطاليا وسعت عند هتلر لإقناعه بالعدول عن إشعال نار الحرب ريثما تبذل مساعي أخرى لدى إنجلترا وفرنسا وبولندا من أجل الوصول إلى اتفاق ؟

هل كانت ألمانيا تعتمد على دخول إيطاليا إلى جانبها فوراً إذا ما قامت الحرب ، فلما أزفت الساعة ذهب الكونت شيانو ليبلغ حليفهم ألمانيا خبر عدول إيطاليا عن هذه المغامرة ، ومن هنا اضطرت ألمانيا إلى تأجيل الحرب ... ثم ولت وجهها شطر روسيا لكي تعقد معها اتفاقاً يعوض عليها ما خسرت بوقوف إيطاليا على الحياد ، ويعطى حكومة النازي نصراً معنوياً يشد من عزائم رعايا الريخ ؟

هذه أسئلة وألغاز سوف يكشف سرها يوم تنهى الحرب .. !

لقد عشنا في التاريخ عشرة أيام

كنا في (كاب داي) على مقربة من مونت كارلو حين أعلنت الصحف أن ألمانيا قد قذفت العالم بهذه المفاجأة العجيبة ، وهي ميثاق عدم الاعتداء الذي عقده مع حكومة السوفييت .

وكانت مفاجأة غير سارة ، كما أسماها مستر تشمبرلين ، ذلك لأن العالم أدرك يومها أن العامل الأكبر الذي يجعل ألمانيا تتردد في غزو بولندا قد زال ، وبعد تنحي روسيا أصبحت بولندا وحيدة وجهاً لوجه أمام ألمانيا .

تكهرب الجو ولمعت أول شرارة في أفق الحرب .

وبين صباح وصباح ، خلت فنادق مونت كارلو من نصف الزائرين .

وكان معنا فتاة إنجليزية صديقة كانت قدمت معنا إلى « الشاطئ » اللازوردي « لتمضي أسبوعاً بين حمامات البحر ومائدة الروليت .

قامت تحزم حقائبها استعداداً للسفر وهي تقول إن الحرب واقعة لا محالة في ظرف أسبوع .

ولم أجد أنا ما أقوله لأنني كنت أعلم مما سمعته بنفسى في برلين أن الحرب حقيقة واقعة لا محالة ، وفي وقت أقرب مما يظن الناس .

لكن صديقنا « على » فتح وجهه بابتسامته العريضة التي تثير الأعصاب وقال للفتاة ساخراً : أنت خائفة ؟ لقد خانك البرود السكسوني المشهود !

قالت الفتاة : سوف ترى .. يا مغفل ..

وقال « على » : إن المعاهدة الإنجليزية المصرية لم تنص على أى حق لرعايا الطرف الأول فى إهانة رعايا الطرف الثانى .

وقلت أنا : ليس فى الأمر إهانة ، وإن « دافنى » لم تقرر سوى حقيقة قد اتفقنا عليها من زمن طويل .

وأسرعت إلى الباب قبل أن تنالنى يد على . وهى أشبه بالمقلاع أو المخلاب .

وذهبت إلى محل « كوك » لأحجز مكاناً لصديقتى « دافنى » على القطار الأزرق الذى يغادر مونت كارلو رأساً إلى باريس . فإذا « بكوك » يعج بخليط من مختلف الشعوب ، وكل واحد يحاول أن يجد له مقعداً فى القطار أو الطائرة عائداً إلى لندن أو باريس وكانت هذه أول دلالة على خطورة الحالة ، وعلى أن المجموع أو الجمهور أرهف حساً من الأفراد .

وطلبت من الموظف مقعداً بالقطار وسريراً للنوم من مونت كارلو إلى باريس ، ومقعداً بالطيارة من باريس إلى لندن .

وقال الموظف دون أن يرفع رأسه : إنى متفائل أكثر من اللزوم فإن جميع مقاعد القطار محجوزة ابتداء من اليوم والأيام التالية لمدة أسبوع .

ولكنى أعرف موظفى « كوك » من تجاربى السابقة وطول المران .

أ [صمدت فى موقفى ، وظللت أعيد عليه الكرة تارة بالإنجليزية وتارة بالفرنسية وتارة بلغة ازدحمت فيها الإيطالية مع العربية مع ألفاظ ألمانية .. وأكرر ما سبق أن قلته ، وأبتدى من حيث انتهيت ، ثم أعود وأبدأ من النهاية راجعاً إلى الوراء .

ورفع الرجل أخيراً رأسه ، وقد تخاذلت قواه ، وقال بصوت ضعيف :
كيف السبيل إلى الخلاص منك ؟
قلت : بأن تعطيني ما أطلب ..

وزحلق بـرشاقة ورقة بمائة فرنك كانت بيدي تحت الأوراق المقدسة
أمامه . وهنا تلاشت قواه تماماً ، وقال : فليكن . ولكن ... سرير للنوم
مستحيل ، لأن جميع أسرة النوم محجوزة لمدة أسبوعين ، ولو حضر برنس
موناكو نفسه أو مسيو دلاييه لما استطاع أن يجد الآن سريراً واحداً
للنوم !

وهكذا كان . وودعنا في نفس اليوم صديقتي « دافني » على محطة
مونت كارلو ، وقد حملت أنا وصديقي أحمد الألفي عطية حقائبها بأنفسنا
لأن حمالي المحطة ، وعددهم عشرة ، عجزوا عن أن يأتوا بالمعجزات
ويحملوا حقائب خمسمائة مسافر على الأقل كانوا مسافرين بالقطار نفسه ..
وتحرك القطار ، ولوحت « دافني » بيدها وهي تقول لنا نحن حلفاء
إنجلترا : إلى الملتقى في برلين .

* * *

عدنا إلى كاب داي ، كنا قد غادرناها منذ ساعة واحدة ..
وفي هذه الساعة الواحدة كانت المدافع الرشاشة الفرنسية قد نصبت
على قمم المرتفعات القائمة على جانبي الطريق من مونت كارلو إلى
كاب داي ، ووقف حول كل مدفع جندي فرنسي ، وجنديان من
جنود السنغال أو الجيش الأسود - كما يسميه الفرنسيون - استعداداً
لآية غارة تنجيء من ناحية إيطاليا .
وكانت هذه هي الدلالة الثانية على خطورة الحالة ، وعلى أن الحوادث
تسير بأسرع من عقرب الثواني إلى حرب الدمار .

إلى مرسيليا :

واستقر رأينا على مغادرة كاب داي إلى مرسيليا ، لكي نغادر أوروبا
إلى مصر على الباخرة النيل . ووضعنا حقائبنا فوق سيارة صديقنا أحمد
الألني ، وتحرك الركب من كاب داي ..

وعلى طول الطريق من كاب داي إلى مرسيليا ، أو الكورنيش
المشهور ، كنا بين وقت وآخر نقف جانباً لكي نفسح الطريق للجنود
ومعدات الحرب والقتال التي كانت قادمة من الغرب إلى الشرق ..
أى إلى الحدود الفرنسية الإيطالية .

وأقبل المساء . وكنا نمر بالقرى والبلدان الفرنسية الواقعة على طول
امتداد الكورنيش فإذا بها مظلمة تماماً إلا من المصابيح الباهتة الزرقاء ،
وكنا نرى الأهالي وقد تجمعوا أمام دورهم يسألون بعضهم بعضاً : هل
من جديد .. أو يصيرون بسيارة مارة هل سمع أصحابها شيئاً عن إعلان
الحرب ؟

جو فزع .. وأعصاب متوترة .. وظلام مقبض للنفوس ..
إذن هي الحرب !

فلسفة الموت :

قال صديقي أحمد وهو يدور حول منعرج خطر من تعاريج
الكورنيش - وكان هو الذي يتولى قيادة السيارة ، قال : الرب واحد
والعمر واحد وكل نفس ذائقة الموت !
قلت له : أعرف ذلك ، ولكنني أعارض بشدة في أن أذوق الموت
مهشماً على الصخور أو أسقط في البحر من ارتفاع مائة متر أو تزيد ..

وَأرجو أن تمشي على مهلك شوية .
 دمت لأنه كان يقود السيارة بسرعة خمسين كيلومتراً في ظلام دامس
 وبين تعاريج الكورنيش ، وهي أشد خطراً من تعاريج لبنان المعروفة
 باسم الكيعان .

النوم على الأرض :

ودخلنا مرسيليا ، وكانت الساعة التاسعة مساء ، والمدينة كلها
 غارقة في ظلام ، ولم تكن المصابيح الزرقاء ونورها الضعيف حيث يقع
 إلا لتريد في حدة الظلام .
 وسرنا في شارع الكناوير المشهور .. وبعد دقائق كادت السيارة
 تعانق قاطرة ترام ، ولكن الله سلم .

وانحرفنا إلى اليمين .. وإذا بهتاف حاد من اللعنات والشتائم باللغة
 الفرنسية الفصحى ، وهي أفصح اللغات في السبب . ذلك لأن السيد
 أحمد صعد بالسيارة دون أن يدري إلى الرصيف أمام قهوة كانت تعج
 بالزبائن الذين لم يرهم في الظلام .

ومضينا نبحث عن فندق ننام فيه .
 وكل من سافر إلى أوربا في ذلك الصيف ، وكتبت له السلامة وعاد
 قد كتب أو تحدث ووصف مرسيليا في تلك الأيام ، وكيف أنها كانت
 مزدحمة بألوف الراغبين في السفر ، وكيف أن الفنادق كانت تعج
 بالنازلين حتى لم يبق فيها موضع لقدم .

لا حاجة إذن لوصف ما لاقيناه في ذلك المساء .. ويكفي أن أقول
 إنه بعد ثلاث ساعات في البحث والرشوة والرجاء استطعنا أن نجد فندقاً
 له بين فنادق مرسيليا نفس المقام الذي يتمتع به فندق الكلوب المصري ،

في حيّ سيدنا الحسين ، بين فنادق العاصمة ، وقد رضى الفندق المذكور أن يتزل صديقاي أحمد وعلى ضيوفاً عليه .. على أن يناما على أرضية غرفة الجلوس في الدور الأرضي في مقابل خمسين فرنكاً لكل منهما فقط لا غير . وكلاهما - أحمد وعلى - يتمتعان بثروة طيبة من اللحم والشحم تضعهما في صف ما فوق الثمانين كيلو جراماً ، فلا خوف عليهما ، وقد جباهما الخالق بهذه « المرتبة » اللينة ، من النوم على بساط من تحته بلاط .

أما أنا - وعظام جنبي تكاد تخرق السترة - فماذا أفعل؟ وكيف أنام على الأرض؟

وأشفق علىّ خادم في الفندق وأخذني إلى « البنسيون » الذي يقيم فيه ، ونزلت لي صاحبة البنسيون عن غرفتها في تلك الليلة في مقابل مبلغ يكفى لإيجار شقة فاخرة في فندق جورج الخامس أو فندق كريون .

شكر واجب :

وانطلقنا في الصباح في شوارع مرسيليا ، وكنا نقابل بين خطوة وأخرى مصريين كثيرين نعرفهم أولاً نعرفهم ، لا يهم .. كنا نقف ونتحدث معاً ، وكل غريب للغريب نسيب ، كما قال الشاعر !

هل وصلت الباخرة النيل ؟ وهل تسافر في موعدها أو تقدم موعد سفرها ؟ وهل فيها أماكن خالية ؟ وهل .. وهل .. ألف هل وهل ، وكل واحدة منها تحطم الأعصاب !

وهنا - وعمري ما كنت مداحاً ولا صاحب ربابة يحرق البخور - هنا يسعدني قضاء واجب من الشكر والاعتراف بالجميل لمدحت يكن وطلعت حرب وتوفيق دوس .

لست أدري ماذا كان يحدث لمئات المصريين الذين عادوا على الباخرة النيل لولا السادة المذكورون . لقد قامت صعوبات كثيرة ذللوها كلها واحدة بعد الأخرى ... صعوبة في توفير أكبر عدد ممكن من الأسرة لأكثر عدد ممكن من المسافرين ... وصعوبة في توفير الزاد والمؤن الكافية لرحلة الباخرة .. وصعوبة في إقناع السلطات الحربية من أجل الحصول على إذن بسفر الباخرة من مرسيليا ، بعد أن قررت الحكومتان الإنجليزية والفرنسية إقفال البحر المتوسط وبحر البلطيق ... وصعوبة في إقناع بعض موظفي الباخرة من الإيطاليين بالسفر مع الباخرة ، وكانوا يرفضون في أول الأمر بحجة أن الباخرة قد لا تصل إلى مصر إلا وهي في حالة حرب مع إيطاليا ، وهناك تعتقلهم الحكومة المصرية بصفتهن من رعايا الأعداء ...

وصعوبات غير هذه وتلك ، ذللوها كلها ، حتى استطاعت الباخرة النيل أن تقوم من مرسيليا ، وأن تعود إلى أرض الوطن بمئات من المواطنين .

دوس (باشا) يشتري اللحم والخضار :

ولقد ذهب توفيق دوس (باشا) بنفسه يبتاع للباخرة ولهذا العدد الكبير من المسافرين ما يكفي من اللحم والسمك والدجاج والفاكهة والخضار .. وكانت مهمة شاقة أن تجد في سوق مرسيليا ، وفي يوم واحد ، هذه الكمية من الطعام التي تكفي لجيش صغير .

وذهب (سعادته) كذلك يبتاع عدداً من «المراتب» المحشوة بالقطن ، لينام عليها العدد الأكبر من ركاب الباخرة الذين دبرت لهم أماكن للنوم في قاعة الجلوس وقاعة التدخين وغرفة المكتبة وحديقة الشتاء .
وقيل له ليست هناك مراتب جاهزة للبيع .

قال : اصنعوها .
 قالوا : نعم . ولكن المرتبة تتكلف تسعين فرنكاً . على أن نسلمها
 لكم بعد ثلاثة أيام .
 قال : ولكن الباخرة تسافر غداً .
 قالوا : إذن يكون سعر المرتبة الواحدة ١٥٠ فرنكاً .
 قال : فليكن ..
 وهكذا كان .

راقصة وكلبها :

ووقف دوس (باشا) عند أسفل سلم الباخرة يراقب بنفسه قدوم
 المسافرين ، ويعطى التعليمات .
 وأقبلت الراقصة أمينة محمد وهي تبكي وتنوح وترجو (الباشا) أن
 يساعدها .

سألها : ما خبرها ؟

قالت : عايزين منى تذكرة ثانية ولا معيش فلوس .

— تذكرة ثانية علشان إيه ؟

— عشان الكلب .. الكلب بتاعى ..

— كلبك .. احنا فى إيه ولا فى إيه ..

— فى عرضك (يا باشا) .. دنا باحبه قوى ..

ولم يستطع دوس (باشا) أن يتخلص من أمينة محمد إلا بعد أن
 أعفى الكلب المحبوب من أجرة السفر على الباخرة النيل .

العاصفة :

وأقلت بنا الباخرة في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الأربعاء .
وكان القبطان وهو إنجليزي يحمل تعليمات سرية محتومة من البحرية
البريطانية على ألا يفرضها إلا بعد أن يتعد عن مرسيليا بمسافة ٣٠ ميلا .
وقد كان . وانحرفت الباخرة عن الطريق المعروف ، وسارت طبقاً
للتعليمات في طريق آخر .

وفي مساء اليوم الثاني - الخميس ٣١ أغسطس - رأينا في الأفق
إلى يمين الباخرة أنوار الشاطئ التونسي وهي تومض وتختفي .
وفجأة اكفهر الجو ، ومزق سكون الليل رعد عريض عميق ..
واصطبغت صفحة الأفق نحو المغرب بلون الدم .
وقالت سيدة مصرية كانت إلى جانبي : سحب الدم علامة
الحرب !

وهبت ريح ثقيلة حارة فوق سطح الماء .. قصف الرعد .. وومض
البرق .. وانفتحت أفواه القرب بمطر غزير ..
وكانت ليلة . ولا أحسب أن أحداً من ركاب الباخرة غمض له فيها
جفن .

وفي ساعات الصباح الأولى ، كانت العاصفة قد بلغت أشدها ،
وكانت سرعة الريح مائة ميل .. وتولى القبطان قيادة الباخرة بنفسه .
وقد اضطرت الباخرة ثلاث مرات إلى الوقوف .. وكانت في كل مرة
منها تقف نحو نصف ساعة حتى تهدأ الريح .
وكانت هذه العاصفة في ليلة الجمعة أول سبتمبر .. أي أول أيام
الحرب ، كأنما شاءت الطبيعة أن تشارك العالم في إعلان المصاب .
ومضينا يوم الجمعة ونحن في هم وفزع ما بين الحرب والبحر ، وكم

من واحد بيننا تسلل خفية إلى غرفته ، وأقفل وراءه الباب ، وجرب كيف يلبس حزام النجاة استعداداً للطوارئ .. طوارئ البحر وطوارئ الغواصات .

ومررت بصديقي عبد الحميد عبد الحق ، وكان مستلقياً على كرسي طويل .. وقال الصديق : يارب .. حنلاقيها منين ولا منين .. من البحر والا من الحرب !

غريق :

وبينما أنا واقف أتحدث مع سعادة فؤاد أباطة (باشا) والأستاذ محمود أبو الفتح ، وقد استندنا إلى حاجز الباخرة المطل على البحر ، أبصرنا جسماً ما فوق سطح الماء ، وقد ركزت فيه عمودياً قطعة من الخيزران ربطت بطرفها قطعة من القماش الأبيض .
ولم نتبين جيداً لضعف النور ما هو هذا الجسم العائم الذي ترفرف فوقه قطعة القماش البيضاء .

ولكن المعنى كان أوضح من أن نستطيع تجاهله .
هذه الراية البيضاء المربوطة إلى قطعة الخيزران إنما قصد منها لفت أنظار السفن .. إلى إنقاذ إنسان ما لعله الجسم الذي لم نتبينه جيداً والذي كان غائصاً في الماء .

ووجمنا .. وقلت أنا لعله صياد مسكين — وكنا على مقربة من مالطة — داهمته عاصفة الصباح ، فقلبت زورقه وحاول هو النجاة .. فربط نفسه إلى قطعة من الخشب ، ورفع منديله الأبيض ، ليلفت إليه نظر سفينة عابرة .

وقال أحد الصديقين بصوت لا يكاد يسمع : أو لعله أحد المسافرين

على الباخرة كذا التي أقلعت قبلنا من مرسيليا بيوم واحد . لا تنسوا أن في البحر الأبيض ٨٠ غواصة ألمانية !

* * *

نعم . . لقد عشنا أياماً على ظهر الباخرة كان فيها تاريخ العالم يصهر في أتون . . وقد عشنا نحن كل دقيقة وكل ساعة في ذلك التاريخ .

سباق « الكرستا » :

كان أمس ختام سباق الكرستا للحصول على كأس إيطاليا . وكنت لقيت هنا منذ نحو ثلاثة أسابيع صديقي كراموند أحد أبطال الكرستا ... وقلت يومئذ بين الجدد والحزب : ما أظنك تنوى دخول سباق الكرستا هذا العام ؟ ..

قال : بلى ... ولهذا بكرت بالحضور لكي أتمرن .

قلت مازحاً : وفي سنك هذه أيها العجوز ؟ !

وضحكنا ... ثم راهنني على زجاجة من الشمبانيا - الفرنسية لا السويسرية ، وهذه أشبه بالبيرة المصرية إذا قورنت بالبيرة الألمانية - وكان الرهان على أنه سيفوز بالكأس والجائزة الأولى .

قلت : وإذا لم تفز إلا بالجائزة الثانية ؟

وهنا قالت مسر كراموند - وهي استرالية : إذن تكون زجاجة شمبانيا سويسرية والله في عوننا ! ..

وكان كراموند تقابل لأول مرة مع هذه الأسترالية الفاتنة هنا في سان موريتز منذ عشر سنوات . والفتاة من أسرة أسترالية واسعة الثراء . أما هو فقد كان يومها في مستهل كفاح الحياة إذ كان يعمل - كموظف أجير - عند أحد رجال الأعمال في حي المال « السيتي » في لندن ، ولكنه كان - من يومه - رياضياً من الطراز الأول .

وأحبته الفتاة . وأحبها هو .. وذات يوم تبادلا أول قبلة بين الثلوج ..
 وما ألد القبلة بين حقول الثلج والجليد الناصعة البياض .
 تطبع القبلة .. وأنت تلهث !
 وترفع شفتيك .. وأنت تلهث !
 هذا والبخار ينساب من بين الشفتين !
 أمي حرارة القبلة تذوب بخاراً في هذا الزمهرير ؟
 واتفق الاثنان على الزواج ..

وقامت قيامة الأسرة الأسترالية الواسعة الثراء ، وغضب الأب ،
 وبكت الأم .. وقال الأخ : « ومن يكون هذا الإنجليزي الذي لا هو في
 العير ولا في النفير ؟ »

وأصرت الفتاة على أن تتزوج ممن أحبت ...
 وهددها الأب بأنه لن يساعدها ببس (حوالى ٥ مليارات) .
 وقالت الفتاة : لا بأس ...

ولم يمض أسبوع إلا وقد تم الزواج بين الاثنين .
 وسافرت أسرة الفتاة عائدة إلى أستراليا وهي تستنزل اللعنات على رأس
 كراموند ، ورأس الفتاة ، ورأس سان موريتز !
 وهما اليوم من أسعد الأزواج ، وقد شق كراموند طريقه في الحياة ،
 وأصبح ممن يشار إليهم في حى المال والأعمال .
 وسألها مازحاً : وما موقف « القبيلة » منكما الآن ؟
 وقصدت « بالقبيلة » أسرتها .
 قالت : أوه لقد تصالحنا منذ سنوات . وقد زارتني أمي وشقيقي
 في الربيع الماضي في لندن .

رياضة صعبة :

وأمس - كما قلت - كان ختام السباق ... والسباق يجري خارج سان موريتز على طول الطريق إلى بلدة شلارنيا . وكنت على موعد مع كراموند أن نلتقي الظهر تماماً في بار سوفريتا ، لكي نحقق الرهان ، وأينا الذي يقدم الشمبانيا لصاحبه ؟ وهل تكون الشمبانيا فرنسية أو سويسرية ؟ وأقبل كراموند وزوجته وعلى فم كل منهما ابتسامة عريضة ، ولوح بذراعه وصاح - وهو ما يزال عند الباب : فرنسية ... وناشفة جداً !

لقد فاز بالكأس والجائزة الأولى . مع أن سباق الكرستا من أعنف رياضات الثلج وأشدّها خطراً . وكراموند قد جاوز الأربعين ، ولو أن رأسه مازال أشبه بغاية كثيفة من الشعر الكستنائي اللون ، وليس فيه شعرة واحدة بيضاء .

وأقبل « جو » أو « يوسف » البارمان يصب الشمبانيا في أقداحنا . وقال كراموند : مسكين « جيمى » لقد كان سيئ الحظ حقاً . وكان هو الفائز الأول ولاشك حتى الثلث الأخير من السباق .. ولكن - ولا أحد يعرف كيف وقع في هذه الغلطة وهو الرياضي المحرب - أفلتت منه قيادة الزورق .. واصطدم زورقه - وكانت السرعة نحو مائة ميل تقريباً - بجدار مجرى السباق . ثم ارتد الزورق وقفز فوق الجدار الآخر .. قاذفاً بالمسكين جيمى بين الصخور .

قلت : وهل إصابته خطيرة ؟

قال : هناك ثقب واسع . . نحو بوصة ونصف ، في جبهته .

هذا بخلاف كسر هنا وكسر هناك .. شيرى يو !

ورفع كأسه يشرب !

هكذا ! وهذا هو برود الرياضى المطبوع !

هذه الأخطار ، وهذه الجروح المميتة ، وهذه العظام المحطمة ..
كلها جزء أو ضرورة من ضرورات الرياضة !

وقد يطول الحديث إذا أردت شرح كل نوع من أنواع رياضة
الثلج ، وأهمها وأشهرها السكى ، والسكاتنج والهوكنى ، والأخيران معروفان
فى مصر ، والفرق بينهما وبين شبيهيهما هنا أنهما يزاوولان فى مصر على
قباقيب ذات ٤ عجلات وعلى الأسفلت ، أما هنا فيزاوولان على الجليد
الممهد ، والقباقيب ليس فيه عجلات ، وإنما فيه حد من المعدن يشقه
بالطول من الرأس إلى المؤخرة . وعلى المرء أن يحفظ توازنه فوق الجليد
وهو يتزحلق على هذين الحدين الرفيعين ، وكأنه يسير على الصراط .
وهناك أيضاً البوب والكيرلنج والكركستا ..

والكركستا - كما قدمت - تزاوول فى شبه زوارق صغيرة من الخشب
والمعدن ، ولكنها زوارق مسطحة القاع ، وقد ركب جسم الزورق فوق
عرضين من الخشب الأملس ، وعلى هذين العرضين من الخشب يتزحلق
الزورق فى مجرى الجليد .

وقد يجلس فى الزورق شخص واحد ، وقد يجلس فيه شخصان أو أكثر
حسب شروط السباق .
هذه هى رياضة الكركستا باختصار .

تاريخ رياضات الثلج :

وقد يدهش القارئ حين يعلم أنه لم يكن هناك شئ ما من رياضات
الثلج هذه فى سويسرا منذ سبعين عاماً ، مع أن رياضة الثلوج هذه

تمثل اليوم نحو ربع إيراد سويسرا القومى بسبب عشرات الألوف من السائحين الذين يفدون كل شتاء على مشاتى سويسرا ليزاولوا هذه الرياضة .

حدث فى عام ١٨٨٠ أن إنجليزياً اسمه الكولونيل نابيير كان يزور الترويج أثناء الشتاء من أجل عمل تجارى ما ، وهناك رأى باعة الأسماك يهبطون من قمة إلى قمة ، ويسرون من شارع إلى شارع فى القرى وقد ربطوا تحت أقدامهم عروضا ضيقة طويلة من الخشب .. يتزلقون بها حتى لا تغوص أقدامهم فى الثلوج ، وهم ينادون ويدقون أبواب البيوت والأكواخ عارضين بضاعتهم .. الأسماك !

وخطر للكولونيل نابيير أن هذه فكرة جديدة ، وأنها تكون رياضة رائعة إذا استطاع بهذين العرضين الضيقين الطويلين من الخشب - أن يهبط من قمم الجبال إلى السفح والوادي .

وفى الشتاء التالى ، قدم نابيير وخادمه ونزلا فى بلدة دافوس ، وهى على مسافة نحو ساعتين من سان موريتز .

وهناك رأى السويسرون إنجليزياً مجنوناً يحمل هو وخادمه عروضا طويلة ضيقة من الخشب على أكتافهما ، ثم يتسلقان الجبل ، وهناك يربطان هذه العروض الخشبية تحت أقدامهما ، وينحدران عليها بسرعة هائلة إلى الوادي .. ثم يعاودان الكرة من جديد !

ولما كان السويسرون قوماً عمليين فقد هزوا أكتافهم يومها وقالوا : « مجانين » . لأنهم لم يروا معنى ولا فائدة من هذا العمل الجنونى .

ولكن الكولونيل نابيير عاد فى الشتاء التالى مع نفر عديد من أصدقائه « المجانين » وراح الجميع يزاولون هذه الرياضة « السخيفة » .

وأخذ عدد المجانين يزداد من عام إلى عام ... حتى ازدحم بهم الفندق الوحيد فى بلدة دافوس . وهنا خطر لأهل سويسرا العمليين

أن هذه الرياضة المجنونة ليست سخيصة إلى هذا الحد — على الأقل بالنسبة لهم ، إذ أن فيها آفاقاً واسعة للتجارة والربح .

وراح أهل سويسرا يشيدون الفنادق الفخمة في مشاتي الجبال ويعلنون بكل وسائل الإعلان والدعاية عن الرياضة «المجنونة» السكى .. وهكذا نشأت رياضة السكى . ومن بعدها تفنن «مجانين» آخرون في ابتكار رياضات أخرى ، مثل الكرستا والكيرلنج .. إلخ .

وقال لي كراموند أمس ، ونحن نتبادل المعلومات عن رياضة الثلج إن «السكى» يزاوُل على الرمال الناعمة في بعض أنحاء أفريقيا الفرنسية ، وإنه شاهد بنفسه بعض الضباط الفرنسيين ينحدرون بالسكى في تلال مراكش الرملية .

وابتسمت أنا وقلت : عندنا في مصر أنواع عديدة من التلال الرملية .. فهل تزور مصر وتنشئ فيها نادياً لرياضة السكى ؟
قال : وهل يجد المشروع التأييد الكافي ؟ ...
قلت : بلا شك ، فإن المجانين في مصر كثيرون ! ...

اللادى ليفر هيوم :

وتقيم هنا منذ أيام اللادى ليفر هيوم ومعها بناتها وعددهن خمس وبنت شقيقتهما وهي أجمل الجميع واسمها فيفيان .

وتجلس اللادى هيوم في صدر المجلس وحولها الفتيات الست ، وليس معهن رجل واحد ...

وقد أطلقت شلتنا عليهن لقب « الكناكيت » !
واللادى من وزن ثقيل الثقيل ، وهي تشبه صديقنا المحترم إسحاق حلمي إلى حد كبير .. والفرق بين الاثنين أن قامتها تبلغ نصف طول قامته

إسحاق حلمي ! ولكن الوزن واحد !

ويظهر أن أحدهم أشار عليها بممارسة رياضة السكى لكى تنقص وزنها ... وعملت اللادى بالنصيحة .. وخرجت إلى شلرنيا تتمرن ... وبينما هى تجر نفسها وتحاول الانحدار من قمة هضبة .. حسب التعليمات ، انحدرت فجأة وبسرعة نحو الطريق الذى يشقه خط السكة الحديدية . واصطدم « السكى » بالقضبان ، وانكفأت اللادى هيوم على جنبها .. وأقبل - فى اللحظة نفسها - القطار وهو يصفر صفيراً متوالياً شديداً ..

واستطاعت اللادى ليفر هيوم - يادوبك ! - أن تدحرج نفسها بعيداً عن القضبان ! واحتفل « الكتا كيت » ليلتها بنجاة اللادى ... وقالت فيفيان وهى تروى لى القصة : إنه لمن حسن الحظ حقيقة أنها نجت .. وإلا كانت مصيبة !

قلت : نعم ... كانت مصيبة تفوق فى هولها مصيبة سقوط الطائرة الأمريكية فى شانون (إيرلندا) ! وقطبت حاجبيها وقالت : لم أفهم .. ماذا تعنى ؟

قلت باسم - وأنا لا أستطيع مغالبة لسانى الطويل - : تصورى ماذا كان يحدث للقطار وراكبيه لو أن اللادى خالتك لم تتمكن من دحرجة نفسها بعيداً عن القضبان ! وانصرفت فيفيان غاضبة ...

ولكنى واثق من أننى لمحت ابتسامة خاطفة فى عينيها وهى تولينى ظهرها غاضبة !

الكونت مانسفيلد :

وهبط علينا منذ بضعة أيام الكونت مانسفيلد وزوجته ... وسألتنى
فى أثناء السهرة مسر فان جرشن الهولندية : هل تعرف الكونت مانسفيلد ؟
قلت : لا ... من هو ؟

قالت : صحفى ولا تعرف الكونت مانسفيلد ؟

واعترفت لها بأنى صحفى خائب فى عالم الأخبار والشخصيات ...
وأخيراً ... هو فى الحقيقة البرنس فرديك هو هنزلرن أصغر أنجال
ولى عهد ألمانيا السابق ، وكان فى إنجلترا يوم نشبت الحرب ، ولقد رفض
أن يعود إلى ألمانيا ، وكان فى وسعه أن يعود إلى وطنه مع رجال السلك
السياسى الألمانى ، ولكنه آثر البقاء فى إنجلترا ...
وقد اعتقل طول مدة الحرب ...

وأخيراً حصل على الرعوية البريطانية ، ونبذ لقبه واسمه الأول ،
واتخذ لنفسه لقب « الكونت مانسفيلد » .

وهو متزوج الآن من إحدى فتيات أسرة جنيس صاحبة معامل
البيرة المشهورة ، وكان من أركان الأسرة المرحوم اللورد موين وزير الدولة
البريطانى فى الشرق الأوسط الذى اغتاله أمام داره فى الزمالك أحد
الإرهابيين الصهيونيين فى أواخر عام ١٩٤٤ .

والكونت مانسفيلد شاب خجول متواضع قليل الكلام . حاولت
مرة أن أجره إلى الكلام فى السياسة ، وعن مستقبل ألمانيا ، ولكنه أفهمنى
بعبارة مؤدبة جداً أن الحديث عن ألمانيا يؤلمه !

هل هضمت معدته فصى الزمرد والألماس ؟ !

بين اللاجئين أو المهاجرين في هذه البلدة يهودى ألماني استطاع الخروج من ألمانيا في عام ١٩٣٨ ، أى منذ تسع سنوات .
ومنذ تسع سنوات وهو يطوف بأطباء سويسرا والإخصائيين في الأشعة ولهذا كله قصة طريفة :

كان اليهودى المذكور « بقالا » على شىء من سعة الرزق ، وكان يقيم في بلدة « أوبرلنجن » . وقد استطاع أن يصنى تجارته — وكان البقالة — سرّاً بالتدريج وأن يشتري بالمال الذى وصل عليه فصوصاً من الأحجار الكريمة . وعندما كان موعد مغادرته — أو هربه — من ألمانيا بلغ الفصوص في جوفه ...

وخرج وليس معه — في الظاهر — إلا ما سمحت به قوانين النازيين !
ووصل الرجل إلى سويسرا — هنا في كرويز لنجز — ولجأ إلى وسائل معروفة (لا حاجة للخوض في تفاصيلها !) لكي يفرغ ما في جوفه !

وتساقطت في الوعاء الذى كان قد أعده ... فصوص من الألماس والزمرد وبعض اللآلىء ... وعدّها الرجل فوجدّها ناقصة ..
وأعاد الكرة على جوفه ، وتساقطت فصوص أخرى . وعدّها الرجل فوجدّها تكمل العدد إلا .. فصين ناقصين وهما أغلى الفصوص قيمة .
وأحدهما ماسة صغيرة وردية اللون — وهذا النوع من أغلى أنواع الماس — والفص الآخر من الزمرد . وعبثاً حاول الرجل إخراج هذين الفصين من جوفه مستعملاً الوسائل « المسهلة » المعروفة كلها .
وذهب إلى أحد أطباء الأشعة ، واستخرج صورة لمعدته ومصارينه فلم يظهر لا في هذه ولا في تلك أثر للفصين التائبين !

ومن يومها والرجل يطوف شهراً بعد شهر بأطباء سويسرا ... ولكن عبثاً ، ومع ذلك لم يفقد الأمل .

ولقد أشاروا عليه بإجراء عملية جراحية للبحث عن الفصين في جدران الأمعاء ، ولكنه رفض وقال : قد أموت من جراء العملية ... ولكن لورثتي الحق بعد وفاتي أن يفتحوا بطني ، ويشرحوا جثتي . ويبحثوا عن الفصين .. ولكنني لن أعرض نفسي للموت إكراماً لهم !

ويروى عنه أنه قال مرة ما معناه : المصيبة أن لي معدة مثل معدة النعام تهضم الحجر ! وأخشى أن تكون معدتي قد هضمت فصي الزمرد والملاس !



اليهودى والماسة

فرقتهم الحرب .. وجمعتهم الأحران !

عرفت في الشتاء الماضي في أثناء إقامتي في سان موريتز (سويسرا)
ثلاث سيدات ...

الأولى ألمانية قتل زوجها في أثناء الحرب في حادثة طائرة ...
والثانية إنجليزية قتل زوجها في أثناء إحدى غارات الطائرات الألمانية
فوق لندن ...

والثالثة هولندية اعتقل الألمان زوجها وأرسلوه إلى أحد معسكرات
الاعتقال ... وبعد ستة أشهر تلقت زوجته من سلطات الاحتلال
الألمانية صندوقاً صغيراً مملوءاً بالرماد !

وأدركت الزوجة أن زوجها مات ، وهذا رماد جثته التي أحرقت
في أحد الأفران !

وكانت الإنجليزية تقول لي كلما رأيتني جالساً مع الألمانية :
« لا أفهم كيف تستطيع أن تجلس مع هذه المرأة ! ولكن لعل السبب
هو أن بلادك لم تدخل الحرب ولم تقاس من فظاعة الألمان الوحوش ! »
وكنتم أضحك وأقول إن الحرب انتهت ، وإنما الآن في عصر السلام
والنسيان !

أما الهولندية فكانت تنظر إلى الألمانية شزراً ...
وذات مساء وكنتم جالساً مع السيدة الإنجليزية أقبلت علينا السيدة
الألمانية وحيّتني .

وقفت أرد التحية ثم قدمتها إلى السيدة الإنجليزية ...
ووالإنجليزية شعبت مؤدب ، أو إن شئت فقل « بارد العواطف » يستطيع
دائماً أن يغلب أدبه على كل شيء !

ومدت السيدة الإنجليزية يدها تهز يد الألمانية وتحييها التحية المألوفة
« هاو دو يودو » أى كيف حالك !

ورأيت الفرصة سانحة فاستأذنت لحظة .

وعدت ومعى السيدة الهولندية مدام فان جرشن . وقدمتها للألمانية
فراوسيتا بوهلن فون كروب ...

وكسر الثلج كما يقول المثل الإنجليزي ، وزال حرج اللحظات الأولى .
ورفعت الكلفة ..

ووصفت مسر ستاتارد الإنجليزية كيف قتل زوجها بشظية قنبلة
ألمانية فى أثناء إحدى الغارات .

وتحدثت الألمانية عن زوجها الشاب — وكانا قد تزوجا قبيل الحرب
بأشهر معدودات — وكيف كانت تحبه ، وكيف فقدته فى أول سنة من
سنى الحرب ، وكيف سقطت طائرته ...

وتحدثت الهولندية

ووجدت نفسى بين ثلاث سيدات يبيكين ، ويتبادلن العزاء !

وقالت الإنجليزية : ألا ما أسخف الحرب !!

ذكرت هذه الجلسة وأنا أقرأ أنباء الأسبوع ! وحديث الحرب القادمة

على كل منبر وعلى كل لسان !

ألا ما أسخف الحرب !

وما الحرب إلا نار يوقدها القادة وزعماء الشعوب ! الزعماء والقادة

الذين يظلون بعيداً عن ميادين القتال فى مأمن من النار والدم والحديد !

أما الأفراد — الرجال والنساء — فلا حيلة لهم إلا التضحية وإلا البكاء !

إن فى مقدور نساء العالم — والنساء وحدهن — أن يتحدن !

ولو اتحدن لاستطعن أن يقضين على الحروب !

ولعل اتحاد النساء أسهل تحقيقاً من اتحاد حكومات الرجال !

مدينة ميكيا فلي تسكّر وترقص وتغنى !

فلورنسا - مارس ١٩٤٧ :

وصلنا إلى فلورنسا بسلامة الله ! ولأول مرة منذ أسبوع ، أى منذ
وطئت قدماى أرض إيطاليا .. شاهدت الشمس وزرقة السماء !
ولى ذكريات فى فلورنسا ... وكان ذلك فى أواخر مارس ١٩٣٨ .
وهأنذا أعود إلى فلورنسا فى مارس ١٩٤٧ ، أى بعد تسعة أعوام ، وما
أسرع مرور الزمن ... أحيانا ! ثم ما أثقل مرور هذا الزمن فى بعض
الأحايين على الذى طال صبره حتى نفذ أو كاد !
هنا فلورنسا ... مهد الفن الفلورنسى القديم ... فى البناء وفى
الزخرفة وفى النحت وفى التصوير ... وفى الأزياء ، أزياء الرجال وأزياء
النساء .

هنا مهد الأرستقراطية الإيطالية ، أرستقراطية الجمال ، وأرستقراطية
الشعر وأرستقراطية فنون الحكم ...
هنا قامت أسرات طبعت أسماءها وأعمالها فى تاريخ أوربا وتاريخ
عالم القرون الوسطى . أسرة مديتشى وبورجيا وأورسبى وسفورتزا
وغيرها . ووزير خارجية إيطاليا اليوم هو سليل الأسرة الأخيرة .
هنا بلد الجمال ، وبلد السحر ، وبلد الشعر ، وبلد الأدب ،
وبلد « السموم » ..
السم فى العطر ! والسم فى الزهر ! والسم فى شمة . والسم فى قبلة !

والسم في طي الخطاب أو في جلد قفاز ... يلمس أحدهما « المحبوب » ويموت ! ..

وفن أو علم السموم هذا برع فيه الفلورنسيون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حتى كنت تجد دائماً في معظم بلاطات ملوك أوروبا وأمرائها في ذلك الحين فلورنسيًا يقوم بمهام وظيفة الصيدلى الخاص لصاحب الجلالة أو لصاحب السمو !

ولم تكن مهمة هذا الصيدلى الخاص هي شفاء الناس ! هذا أمر ثانوى ! وإنما كانت في الواقع مساعدة الملك أو الأمير على الخلاص من خصومه وأعدائه ، وخليلاته أو عشاق هؤلاء الخليات !

وفي فلورنسا ولد ونشأ وترعرع « ميكيا فيلى » الذى ترمى به الآن كل سياسة ملتوية .. وكل سياسى يلعب ويدبر مؤمراته في الظلام ! ... والواقع أن نيكولا ميكيا فيلى مظلوم وبرىء من هذا الذى يلصقه به العالم الحديث .

لقد ولد ميكيا فيلى في الثلث الثانى من القرن الخامس عشر ، وكانت جمهورية فلورنسا يومها - وهى البندقية - من أغنى دويلات أوروبا بسبب تجارتها الواسعة مع الشرقيين الأقصى والأدنى ، وكانت سفنها تجوب البحار ، وكانت خزائنها وخزائن أهلها عامرة بالذهب ..

وكانت تجاورها من الغرب والشمال والجنوب أملاك لويس الثانى عشر ملك فرنسا .. في حين كان الإسبان يتربصون بها من قواعدهم في صقلية وفي كالابريا .

وكان هناك غير هؤلاء القائد الطموح النابغة والسياسى الداهية سيزار بورجيا .

وكان كل من هؤلاء يطمع في فلورنسا وذهبها المقدس في خزائنها .. واضطرت فلورنسا أن تصانع هؤلاء جميعهم ... وأن تشتري حماية

لويس الثانى عشر بأكياس الذهب ، وأن تضمن تأييد سيزار بورجيا وجيوشه لها بأكداس الذهب ..! وأن تمشى على مهل وحذر فوق جبل مشدود بين الفرنسيين والإسبان !

وفى هذه الفترة من تاريخها ظهر نيكولا ميكيافيللى ، ودخل خدمة « سكرتارية » مجلس الجمهورية فى وظيفة كاتب بسيط ، ثم لم يلبث ذكائه الحارق أن دفع به إلى الأمام حتى أصبح سفير الجمهورية فى المهام الجسام توفده تارة لمفاوضة ملك فرنسا ... وتارة لمقارعة زميله ونده فى الدهاء سيزار بورجيا ! ..

وسار ميكيافيللى على سياسة استنها لنفسه ، فنجحت وأثمرت أطيب الثمرات .. وهذه هى السياسة التى ضمن قواعدها كتابه « الأمير وأصول الحكم » !

وتتلخص سياسته فى أن الغرائز البشرية واحدة لا تتغير ، بل هى هى فى كل بيئة وكل جيل وكل بلد .. وأن المرء إذا درس التاريخ وحوادثه أمكنه — إذا قامت ظروف مشابهة لظروف سابقة فى سير التاريخ — أمكنه أن يحكم أو يتنبأ مقدماً بأن الذى سوف يحدث هو نفس الذى سبق أن حدث فى تلك الظروف الشبيهة السابقة !

وإن العوامل الحاسمة أو الفاصلة فى هذا كله هى غرائز وطبائع النفوس . ولهذا كان هم ميكيافيللى الأول أن يدرس أخلاق وطباع معاصريه ...

هذه كانت سياسة الرجل ، ولم يكن فيها كما ترى شئ من الالتواء والدس أو اللعب فى الظلام ! بل لقد عرض عليه سيزار بورجيا أن يترك خدمة فلورنسا وأن يدخل فى خدمته .. وعرض عليه المنصب الرفيع واللقب السامى والمرتب الضخم ، ولكن ميكيافيللى رفض وهو يقول : « أنا لا أبيع خدمة وطنى باللقب ولا بالذهب » !

هذا هو ميكيا فيلي البريء المظلوم ! .. وهناك اليوم - وفي مصر
عام ١٩٤٧ - سياسيون أحق منه برصف بسياسة الخيانة والغدر، سياسة
الالتواء والدس في الظلام !

ولكن فلورنسا الغنية ... أصبحت فقيرة اليوم في كل شيء إلا في
الفن وإلا في الاستقرارية والجمال ! . . !

وكانت فلورنسا تعيش قبل الحرب على موسم السياحة ، وكان يقصدها
آلاف السائحين ، وخصوصاً من الأمريكان والبريطانيين ، إلى أن كانت
الحرب ، فانقطع مورد رزقها ... ومن يومها تعيش فلورنسا عيش الكفاف .
ولعل هنا السر في أن المعيشة فيها - نسبياً - أرخص بكثير من ميلانو
وروما ...

ومع ذلك لم يفقد أهل فلورنسا شيئاً من مرحهم المعروف ، ومن
حبهم للعيش الطيب والحياة المنيئة بين الغناء والرقص وقرع الدفوف .
ويساعدهم على هذا أن بلدهم موطن أشهر الأنبذة الإيطالية ... نبيذ
كيانتي المشهور ، وهو يباع هنا برخص التراب !

وفي مساء أمس دفعت في قنينة معتقة يرجع تاريخها إلى عام ١٩٣٤
دفعت مائتي ليرة أي ما يساوي اثني عشر قرشاً !

وفي كل مساء تزدهم مطاعم ساباتيني وبوكالاني ودوني وجيوا كيمو
وصالات الفنادق بأهل فلورنسا يطعمون ويشربون ويغنون ويرقصون ..

واليوم الأحد ، وأنا أكتب هذا لا في ضوء شمعتين ، بل في نور
الشمس الساطعة ، أنظر عبر الشرفة إلى نهر « الأرنو » الذي يخترق المدينة -
وقد تهدمت بعض الدور على ضفته الشرقية في أثناء ارتداد الألمان -
وإلى الكوبري العتيق أو « بونتو فكيو » ومحال البضائع الجبلية والقطنية
والمجوهرات القائمة على جانبيه ... وإلى مئات السائرين والسائرات على
ضفتي الأرنو في ملابس يوم الأحد ، وبأيديهم باقات البنفسج ..

وإني العازفين على « الماندولين » والراقصين والراقصات على رصيف الأرنو
 ابتهاجاً بمقدم الربيع .. أنظر إني هذا كله وأعجب ، هل حاربت
 إيطاليا حقاً ؟ وهل اكتوى أهل إيطاليا بنار الحرب وويلاتها؟! إذن
 فلماذا لا يثقل احم على أكتافهم كما يثقل على أكتاف الإنجليز وجيرانهم
 الفرنسيين ؟ أو أن المرح و« هز الكتفين » طبيعة في النفوس ... ولا شأن
 لهما « بالقوة ولا بالنصر ولا بالغنى ووفرة المال » ؟

باريس فى الربيع . . موظفو السفارة المصرية ينتظرون الصيف بقلق شديد

باريس — مايو ١٩٤٧ :

« هذا أبهى ربيع عرفته باريس منذ سنوات كثيرة ! »
عبارة تسمعها اليوم فى كل مكان من أفواه الباريسيين والباريسيات .
تسمعها من عامل المصعد ، ومن عاملة « المانيكور » ومن
« ميتر دوتيل » المطعم ، ومن سائق التاكسى ، وكل من هؤلاء « يحسبها »
عليك تحية طيبة ، وينتظر منك جزاء عنها فى شكل بقشيش سخى !
وحقيقة ، هذا أبهى ربيع عرفته أنا فى باريس ، وهكذا جرى الله
خيراً صبر باريس وأهل باريس عما قاسوه طول فصل الشتاء الماضى
من عواصف الثلج وشدة البرد .. وقلة الفحم ووسائل التدفئة .
ومنذ أسبوع خلعت باريس ملابس الشتاء .. وخرج أهلها —
وبناتها — فى ثياب الربيع ، ولن أتورط فى وصف الألوان والأزياء ...
أزياء القبعات وأزياء الفساتين وأزياء الأحذية .. وحقائب اليد ..
ولكل من هذه زى جديد ، ويجمع بينها كلها « انسجام » لا تجده إلا فى
باريس ! ..

وبدأت محال الأزياء — كارفن ومولينيه وماجى روف وغيرها — بدأت
تعرض أزياءها التى أعدتها للربيع ... وللصيف و « للبلاج » . تعرضها
فى « استعراضات » تقام فيها أو فى فنادق باريس الكبرى فى أثناء تناول
الشاي ، ويمر أمام الحاضرين سرب من أجمل فتيات باريس ...

بين شُقْر وسُحْر وسط بين الاثنتين . أى عيون عسلية وشعر كستنائى
دافئ . وكل منهن ترتدى الزى الحديد الذى يوافق اونها وقامتها ...
وبينهن من تبدو فى آخر زى جديد لثياب الاستحمام ...
أو ثياب الشاطئ « بالشورت » والقميص ...
والقميص ذو نصف كم . أو من غير أكمام ! ..

وبين هؤلاء الفتيات من تنتمى إلى أسرة طيبة . وفى محل كارفن
مثلا فتاة شقراء جميلة وديعة ، حلوة الابتسامة براقعة العينين اسمها
مونيك دى سالفى .. أبوها (وقد مات) كان يحمل لقب فيكونت .
وأُمها ابنة (بارون) ! وهى تعمل فى محل كارفن « مانكان » وكل مناها
أن تلتقى بابن الحلال الذى يتزوجها .. وقد عرفت منها أن « كارفن »
سوف يوفد فتياته « المانكان » إلى مصر فى شهر ديسمبر القادم ليعرض
أزياء الشتاء ..

وقلت للآنسة مونيك : من يدري ! قد تقابلين فى مصر زوجك
الموعود ؟

وقالت بابتسامة : ولكننى غيورة جداً .. ولن أرضى أن أكون فى
« الحريم » !

وتسعون فى المائة من أهل أوربا مازالوا يعتقدون أن مصر مثل بغداد
فى عهد هارون الرشيد !!

وفتحت ميادين السباق فى « لونجشان » و « سان كاو » وقريباً فى « شانتي » ..
وفى يوم الأحد الماضى ربح ما جوادمانى لونجشان ودفعت التذكرة فئة
عشرة فرنكات ربحاً قدره ٩٧٢ فرنكاً أى سبعة وتسعين ضعفاً !
وفى زحام السباق .. سمعت فجأة « يبحرق دين .. ! »
وتلفت ورأى .. لاشك أن الاثنين من إخواننا السوريين أو اللبنانيين ،
ويظهر أن هجرة شعبي القطرين الشقيقتين – وكانت توقفت بسبب

الحرب — يظهر أن الهجرة قد بدأت من جديد .. وذلك أننى قابلت كثيرين من « إخواننا » فى ميلانو وفى روما وفى سويسرا وعلى الريفيرا وفى باريس .. ومن الصعب علىّ دائماً أن أفرق بين السورى واللبنانى ، لأن السحنة والملامح واحدة واللهجة واحدة .. وكل ما هنالك من فرق هو « رتوش » خفيفة فى طريقة سب وحرق الحلق والملة والدين !

ودعتنى منذ بضعة أيام صديقة فرنسية طيبة وزوجها الموسيقار ، لتناول العشاء فى ماكسيم وقضاء السهرة فى مكان ما ، ودعت معى المغنية الباريسية الحسنة كوليت مارس صاحبة كاباريه « لا فى باريسان » — وكان اسم الكباريه سابقاً « سوزى سوليدور » — وصديقة أخرى اسمها مرأى ..

وسألتنى كوليت : هل قابلت يولاندا فى مصر ؟

قلت : ومن هى يولاندا ؟

قالت : زميلة .. مغنية ، ذهبت إلى مصر منذ ثلاثة أشهر .

قلت : ولكننى تركت مصر منذ ستة أشهر .

قالت : لقد كتبت إلى أخيراً تبدي إعجابها بمصر وكل شئ فى مصر ، وتقول إن أحد أصحاب الملايين أهداها سواراً ثميناً من الماس .. وتلح على فى زيارة مصر .

ثم قالت إنها تعاقدت على الغناء فى أثينا فى شهر سبتمبر القادم ، وقد تفكر فى الذهاب من أثينا إلى القاهرة .

وبعد العشاء اقترحت كوليت مارس أن نمضى السهرة فى كاباريه شرقى فتح أخيراً ، واسمه (الإسماعيلية) لكى نسمع صوت المغنية الجديدة جنيفيف جيترى مطلقة ساشا جيترى الممثل والمؤلف المسرحى المشهور ، وكانت جنيفيف بدأت تعمل فى الإسماعيلية منذ أيام ..

وذهبنا إلى الكاباريه وهو على مقربة من فندق « بلاتزا أتنيه » ..
وأعلنت الآنسة الموظفة أننا سنسمع موسيقى شرقية من أوركسترا
مصرية شهيرة .

ودخل أعضاء الأوركسترا المصرية .. وكانوا أربعة رجال وفتاة ،
وإذا بهم جميعاً من إخواننا التونسيين ..

وبدأ التخت يعزف .. وارتفع صوت « خنشور » منهم يغنى « افرح
يا قلبي » للآنسة أم كلثوم .. ويردد أفراد التخت الغناء معه . ولكن
بلهجة تونسية عريقة !

ثم غنوا دوراً آخر لعبد الوهاب ..
وبعدها وقف « الخنشور » وأعلن بالفرنسية أن الراقصة الرشيقه « زهرة »
سوف ترينا عجباً من رقصها الشرقى !

ورقصت « زهرة » وهى لو حضرت إلى مصر لما استطاعت أن ترقص
في غير مسرح روض الفرج أو تياترو أبو الريش ..
وأخيراً ظهرت جنتيف جيتري وغناؤها لا بأس به ، ولكن صوتها
يصلح للأوبرا كوميك ، لا لغناء « الطقاطيق » في الكاباريهات .

* * *

وكانت كوليت مارس في وقت ما — وهى الآن في الثانية والثلاثين
من عمرها — كانت « صديقة » لموريس شيفالييه ، وقد قالت لى إنه
أبخل رجل عرفته في حياتها . وإنه برغم الثروة الطائلة التى جمعها من
عمله المسرحى ، وخصوصاً من الأفلام الأمريكية، يعيش عيشة شح
وتقتير ... ومن ذلك أنه يقيم في شقة ذات غرفتين فقط ، وتقوم على خدمته
وطهو طعامه خادمة عجوز هى في الوقت نفسه « فراشة » في مسرح
الكازينو دى بارى حيث يعمل موريس عادة .. أى أن موريس يدفع
لها نصف مرتب فقط لأنها تعمل عنده بالنهار وفي المساء تعمل في الكازينو !

وتركه مرة عازف البيانو الذى يصحبه على المسرح فى أغانيه ،
تركه لقلة الأجر الذى يدفعه له موريس شيفالييه .. وأعلن موريس
عن حاجته إلى عازف بيانو .. ولم يرض أحد من العازفين المعروفين
أن يعمل معه بسبب بخله المشهور ..

وأخيراً تقدم شاب مبتدئ لم يسبق له الظهور على المسرح ، وتعاقده
معه موريس على الشروط الآتية :

أن يقدمه موريس كل مساء للجمهور بعبارات كلها مديح وإطراء
(وهذه الدعاية من موريس شيفالييه كفيلة بشهرة أى عازف مبتدئ)
وأن يعمل معه مجاناً - بدون أجر لمدة - شهرين .

وبعد الشهرين يتفق على مرتب .. ولكن يخصم ٢٠٪ من هذا المرتب بصفة
عمولة لموريس شيفالييه ، وهى العمولة التى تتقاضاها وكالات التوظيف !
وتقول كولين إنه كثيراً ما تذهب فتيات جميلات ، يطمعن فى
الحصول على شهرة فى عالم الموسيقى والتمثيل ، إلى موريس لكى يساعدهن .
وهذه المساعدة إما فى مقابل مبلغ معين من المال تدفعه الفتاة .

وهنا يخرج معها موريس كل مساء إلى المطاعم المشهورة والأندية الليلية ،
ويراها معه الباريسيون فى السهرات ، ويتساءلون بطبيعة الحال من هذه
الحسنة ؟ .. ونفقات السهرة طبعاً تدفعها الفتاة .

وإما - والرأى لموريس نفسه - أن تصبح الفتاة « صديقة » له
- ومجاناً طبعاً - وفى هذا ضمان كاف لأن تشتهر الفتاة فى الأوساط
الفنية فى باريس !

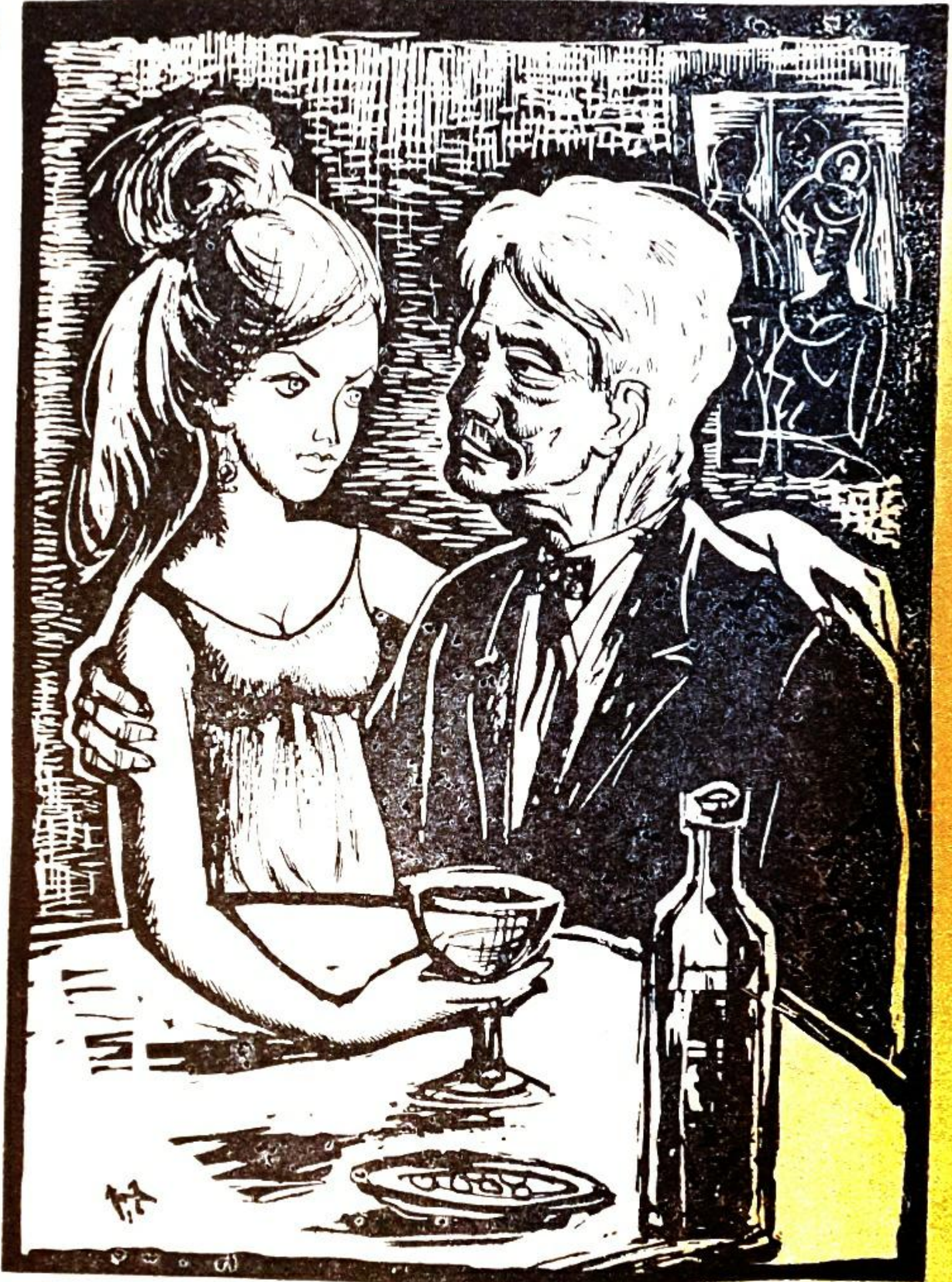
وليس لموريس شيفالييه سوى وارث واحد هو ابن أخيه .. وفى مقابل
هذا « الميراث المنتظر » يعمل ابن الأخ المذكور عند عمه موريس فى
وظيفة كاتب حسابات وسكرتير يرد على الخطابات .. ولكنه يعمل
مجاناً !

وفي ليالى الربيع تنساب السيارات الخاصة وسيارات التاكسي
كل مساء إلى غابة بولونيا وفيها من كل زوجين اثنان ؟
شيوخ وفتيات ..
أو فتيان وفتيات ..
أو « عجوزات » وشبان ..

وتقف السيارة في إحدى « حوارى » الغابة بين الأشجار !
وآخر نكتة تتناقلها باريس في هذا الموضوع هو أن أحد راكبي
الموتسيكلات من بوليس حفظ الآداب مر بسيارة ما من هذا النوع
وكان فيها شيخ وفتاة .. ووقف رجل البوليس وحرر مذكرة بمخالفة ..
لأن راكبي السيارة تركا النور الداخلى فى السيارة مضاء !!
هذه هى المخالفة .. ولا شئ آخر فى ذمة رجل البوليس النشيط !

* * *

وموظفو السفارة المصرية هنا يمسكون اليوم قلوبهم بأيديهم خوفاً من
اقتراب فصل الصيف . وموسم قدوم الزائرين المصريين إلى باريس ..
وقال لى أحدهم فى هذا : إن الزائر المصرى يعتقد أن السفارة
أو القنصلية المصرية هنا ما هى إلا فرع من محل « كوك » ، فهو ينتظر منا
أن نوفد إلى المحطة من يستقبله ، وأن نحجز له غرفة فى أحد فنادق باريس ،
وأن نساوم فى إيجار الغرفة ، وأن نحجز له محلاً فى قطارات فرنسا المزدحمة ..
وأراد أحدهم مرة أن يحجز له ولأسرته « لوج » فى مساء يوم سبت فى
مسرح « الفولى برجير » فقبل له إن جميع الألواج مباعه طول أيام الأسبوع ..
ومع ذلك جاء إلى السفارة يطلب منا أن نستعمل « نفوذنا » فى الحصول
له على اللوج المطلوب ، وفى مساء السبت بالذات !
ومضى الموظف يقول : وابتداء من منتصف يونيو سوف تغص
مكاتب السفارة والقنصلية بالزائرين المصريين الذين يحضرون لا لعمل



الفتيات الباريسيات والشيوخ

أو ما يتصل بعمل ... وإنما للسؤال عن أحسن رواية تعرض الآن في باريس ، أو عن أرخص مطعم .. أو عن عنوان محل يبيع حرير ليون أو .. أو إلى آخره ، كأن موظفي السفارة والقنصلية ليس لهم من عمل سوى هذا .. وإذا عجزنا عن تأدية الخدمة المطلوبة ، أو اعتذرنا عن عدم أدائها ، هن الزائر الكريم كتفيه وخرج يقول لأصحابه : « آمال يا خويا دول بيعملوا إيه ؟ ! »

ويرجو موظفو السفارة المصرية أن يكون الغلاء المطرد وارتفاع سعر الفرنك سبباً في عدول السائحين المصريين هذا الصيف عن القدوم إلى باريس .

والغلاء حقيقة لاشك فيها ، وتكاليف المعيشة اليوم في باريس على وجه الخصوص وفرنسا على وجه العموم ، أغلى منها في العام الماضي بكثير .

* * *

ولقد عمدت حكومة بلوم في شهر ديسمبر الماضي إلى سياسة مقاومة التضخم المالي والغلاء ، فقررت تخفيض ٥٪ من جميع الأسعار . وأعقبها حكومة راماديه الحالية بتخفيض ٥٪ أخرى .. ولكن ماذا تفعل ١٠٪ في غلاء بلغت نسبته بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ في المائة إلى أسعار سنة ١٩٣٩ ؟

كذلك ليست هناك أية رقابة جديدة على الأسعار ، فهناك مثلاً محال تجرى تخفيض العشرة في المائة في فاتورة الحساب ، ولكن بعد أن تكون قد أضافت ٢٠ أو ٢٥ في المائة إلى الأسعار .

من ذلك أن الصديق سليمان نجيب كان قد أهدى إلى في الصيف الماضي بعض « كرافات » اشتراها من محل سولكا بسعر ألف فرنك للكرافطة ..

هذا في شهر يولية ١٩٤٦ .. وفي نوفمبر ١٩٤٦ زرت محل سولكا
فإذا نفس الكرافة تباع بمبلغ ١٢٠٠ فرنك !

وذهب صديق من موظفي السفارة المصرية منذ أسبوع واحد إلى
سولكا فإذا الكرافة نفسها تباع بمبلغ ١٤٠٠ فرنك ، وقس على هذا
بقية الأسعار ..

ومن أخبار إيطاليا أن رئيس جمهوريتها السنيور دي نيكولا قد
زهد في منصبه ، ويريد أن يستقيل ، وذلك لسببين :
أولهما كثرة الذين يقصدونه لكي يجد لهم مسكناً خالياً !
ثانيهما كثرة الذين يطلبون منه أن يقرضهم مما أعطاه الله !
ويقوم الآن رئيس الجمهورية الفرنسية الرابعة مسيو فنان أوربول
بزيارة ممتلكات فرنسا في أفريقيا الغربية .

وسمعت هنا في بعض الدوائر الصحفية أن مسيو فنان أوربول
قد يقوم بعد عودته من هذه الرحلة بزيارة رسمية لإنجلترا بمناسبة عقد
معاهدة التحالف بين البلدين ، ويرد له ملك إنجلترا طبعاً الزيارة في
باريس .

وبهذه المناسبة .. كان هناك رجل فرنسي في عام ١٩٤٣ يعيش
متنكراً في فرنسا منتقلاً من مخبأ إلى مخبأ هرباً من رجال الجستابو الألماني
الذين كانوا يبحثون عنه ، لأنه كان من أقطاب « الحركة السرية »
في فرنسا . واستطاع الرجل في آخر الأمر أن يهرب إلى إنجلترا .
ولقد وصل ذات مساء إلى لندن ، وهو ممزق الثياب ، كث اللحية ،
مغبر الوجه ، وفي حدائه ثقب كبير ظهر منه أصبعان من أصابع
القدم !

واستقبله بعض أصدقائه في لندن ، ودعوه إلى تناول العشاء معهم
في فندق كلاريدج .

ولكن رئيس الخدم « الميتردوتيل » فى قاعة الطعام بالفندق الفخم
المذكور رفض أن يسمح للرجل بالدخول .. والسبب كان شكله وزيه
وقذارته !

والسؤال الآن .. ترى لو ذهب هذا الرجل غداً إلى فندق كلاريدج
فى لندن فكيف يستقبله رئيس الخدم ؟

لقد كان هذا الرجل هو فنسان أوريول رئيس جمهورية فرنسا
الآن !!

فتاة الشوارع التي أبكت قصتها الملايين

باريس — يوفية ١٩٤٧ :

احتفلت الأندية الأدبية في باريس بمرور خمسين عاماً على وفاة إسكندر ديماس الصغير : ولكنه كان احتفالاً بسيطاً متواضعاً لم يشترك فيه سوى نفر قليل من أدباء فرنسا الذين يقدرون لديماس أدبه القصصي الرفيع . أما فيما عدا ذلك فقد مرت « الذكرى » دون أن تذكرها باريس أو تلقى إليها بالاً ! ..

وإن هي إلا أيام حتى كان هناك احتفال آخر ، ولكن باريس هذه المرة قامت بأسرها تشترك في هذا الاحتفال .. وأقصد باريس الشعبية .. باريس مونمارتر ومقبرة « بيرلاشيز » .. باريس الأدباء والموسيقيين والشعراء والرسامين ... باريس المحبين وفتيات الخوى أنى كان ميدان الخوى .. في الشانزيليزيه وغابة بولونيا .. أو كان على الضفة اليسرى في مونبارناس أو في مونمارتر على درجات كنيسة الساكركير !!

وكان هذا الاحتفال بمناسبة مرور مائة عام على وفاة (ألفونسين بليسي) والفونسين بليسي هذه هي مرغريت جوتيه أو « غادة الكاميليا » بطلة القصة التي كتبها إسكندر ديماس : وخلدها فردى بموسيقاه . وهكذا نسبت باريس المؤلف ، وذكرت بطلة القصة ، أو إن شئت نقل : نسبت الخالق وذكرت المخلوق ! .. فقد استطاع ديماس أن يجعل من ألفونسين بليسي فتاة الشارع « ضحية » تستدر الدموع ... وأن

يخلق منها شخصية نبيلة أو زهرة يانعة طاهرة داسها القضاء ظلماً بقدميه .
ولم تكن ألفونسين في الحقيقة على شيء من النبيل ولا من الظهر ...
وإنما كانت فتاة عادية من فتيات الشارع والليل ، تسقى كأس الهوى
كل قاصد ، وتتعاطى كأس الهوى مع كل عابر سبيل . وإنه
لمن حسن حظ الأدب وفن القصة أن إسكندر ديماس لم يكتشف هذه
الحقيقة . بل عاش ومات وهو يؤمن بأن ألفونسين كانت زهرة طاهرة
قست عليها يد القدر .. في حين أن ألفونسين هذه لم تكن سوى فتاة
من أسواق بابل تبيع الهوى لمن يشتره .

ولو أن ديماس كان قد عرف هذه الحقيقة وتفتحت عيناه ، لكان
فن القصة قد خسر آية من آياته البينات .

وقصة «غادة الكاميليا» من أوسع القصص انتشاراً ، بل لعلها - مثل
روميو وجولييت - القصة التي ترجمت إلى جميع لغات العالم ، ومثلت
على جميع مسارح العالم ، واستدرت الدمع من العيون ... لا فرق في
هذا بين أبيض وأسود أو أحمر وأصفر . مع حفظ الفارق طبعاً بين
القصتين . وبين المؤلفين ومكانة كل في عالم الأدب ..

ثم هناك فرق آخر ، هو أن روميو وجولييت شخصيتان خلقتهما
شكسبير من خياله الخصب ، وليس لهما في التاريخ سند من رواية
أو أسطورة ، في حين أن مرغريت جوتييه شخصية حقيقية عاشت وماتت
وكان مسرح حياتها القصيرة ... باريس .

وكانت مرغريت جوتييه - واسمها الحقيقي ألفونسين بليسي - في الثامنة
عشرة من عمرها حينما التقت لأول مرة بالكاتب الشاب إسكندر ديماس
وكان هو في العشرين من عمره . وتذوق الاثنان لذات الهوى أربعة
أشهر ..

أربعة أشهر فقط خرجت بعدها «ألفونسين» من حياة الفتى ، ولكن

هذه الأشهر الأربعة كانت كافية لأن تملأ صدر الفتى العاشق حيناً ولوعة ، ولم تستطع حياة الهوى التى عاشتها الفتاة وهى تنتقل من أحضان إلى أحضان ومن عاشق ثرى إلى عاشق ثرى ، لم تستطع أن تشفى ديماس من حبه أو تنسيه ألفونسين ، بل كان يلتمس لها الأعذار ، ويعدها ضحية من ضحايا القضاء والقدر إلى أن ماتت فى يونية سنة ١٩٤٧ .

وهنا — وكانت مأساة غرامه لا تزال حية تتأرجح فى صدره . مع أنه كان قد افترق عن معشوقته منذ أعوام — هنا جلس ديماس وكتب قصته الخالدة « غادة الكاميليا » وقد أبدل اسم ألفونسين بمرغريت جوتييه واسمه هو بأرمان ديفال !

ومن يومها زاحمت غادة الكاميليا .. جوليت شيكسبير فى تاريخ العشق والعشاق .. وأصبحت قصتها على كل لسان . وأصبح قبرها المتواضع فى مقبرة « بير لاشيز » — مقبرة الفقراء ، واللقطاء وأبناء السبيل فى باريس — أصبح قبرها كعبة ومزاراً للعاشقين ، ومع أنه قد مر على وفاتها قرن كامل — مائة عام — لا يزال قبرها هذا دائماً مغطى بالزهور هدايا وقرابين من عشاق برح بهم الهوى ، أو عشاق أضناهم الفراق ، أو محبين بسم خم الزمن .. كل منهم جاء إلى قبر « ضحية الهوى » كما رسمها ديماس يضع عليه باقة من زهر البنفسج أو الورد أو من الكاميليا زهرتها المحبوبة . وعلى القبر قطعة صغيرة من الرخام نقش عليها تاريخ المولد وتاريخ الوفاة : « ألفونسين بليسى ، ولدت فى ١٥ يناير ١٨٢٤ وماتت فى

٣ يونية ١٨٤٧ »

٢٣ عاماً ! .. ما أقصر عمر هذه الفتاة التى خلد ذكرها إسكندر ديماس ! .. فلولا ديماس لكان الناس قد نسوا ألفونسين بليسى .. أو إن هم ذكروها ، ذكروها على حقيقتها ، فتاة هوى رخيص .. أبرز ما فى صفاتها وأخلاقها حبها للكذب وحبها للمال . ولكنها كانت

« أستاذة » فى فن الكذب والخداع ، ومن ثم استطاعت دائماً أن تخدع عشاقها وكان ديماس أحد المخدوعين ! ..

ولدت ألفونسين بليسى فى إحدى قرى مقاطعة نورمانديا فى بيت أو كوخ وضع ، وماتت أمها فى أثناء الوضع ، وتركتها لرحمة أب سكير .

و ذات يوم ، وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها ، مر بالقرية « سرك » وأغراها سائق إحدى عربات السيرك بالفرار معه إلى باريس .. وفى شوارع باريس تركها عشيقها السائق وفى جيبها فرنكان ! وعاشت الفتاة - أو الطفلة - نحو عامين فى مواخير كبارى السين التى كانت رائجة فى ذلك العهد - عصر الملك لويس فيليب - ما بين اللوفر وكنيسة نوتردام ، وكان البن - ثمن جسدها النضير - ثلاثة فرنكات ، إلى أن قابلها ذات ليلة على الكوبرى الحديد « بون نيف » تاجر على شىء من الثراء ، وقد استرعاه شبابها وجمالها النحيل اللامع الشبيه بحمال زهرة الياسمين ، وعيناها الواسعتان تحيط بهما هالة كانت نذير السل الذى قصف حياتها قبل الألوان !

وحملها الرجل إلى داره واتخذ منها عشيقة ، وأغدق عليها العطاء وابتاع لها الثياب والحلى وعربة خاصة يجرها جوادان ! ..

وسرعان ما اندمجت الفتاة الريفية فى عشها الحديد ... وعرفت كيف تمشى وكيف تختال ، وكيف ترمى النظرة هنا وهناك ، وكيف تميز بين النبيل المفلس وبين النبيل الغنى .. وبين ابن العامة وابن الأشراف ، وكانت يومها لم تبلغ بعد السادسة عشرة من عمرها ، ومع ذلك استطاعت فى زمن وجيز أن تتقن فن « الغوانى » وضروب الدلال .. وألوان الصيد الحرام ! ..

وإن هى إلا أشهر حتى كانت باريس تحت قدميها تنتقى منها وتختار !

من دوق إلى كونت . ومن كونت إلى تاجر من أصحاب الملايين ، إلى
ماركيز ، إلى ضابط عظيم في حاشية لويس فيليب .. حلى ومجوهرات ..
عربات وجياد .. زهور وعطور .. نشوة في الليل ونشوة في النهار
وإسراف في الجسد والقبيلات ! ..
أما قلبها فقد ظل مغلقاً .

قالت ذات يوم لعشيق كان يعاتبها : « لو كان لي قلب لماعرفتك » ! ..
إلى أن التقت ذات يوم بشاب كاتب مغمور اسمه إسكندر ديماس ،
وهنا تفتح قلبها لأول مرة .. أو قل انفرجت قليلاً ثانياً الباب ! وكان
حبها لديماس أول شعلة أضاءت حياتها ، حياة النشوة والشهوة والظلام ،
ولم تدم العلاقة سوى أربعة أشهر .. لأن ديماس كان فقيراً ، وكانت
ألفونسين تشتهى دائماً المال والعيش الرغيد ، ولو كان ديماس غنياً
لطالت العلاقة أو ربما انتهت بالزواج .. وكان العالم فقد هذه القصة :
قصة غادة الكاميليا ..

وودعت ديماس ذات يوم والدموع تملأ عينيها الواسعتين اللتين تحيط
بهما هالة رقيقة سوداء ، وكان المرض الوبيل قد بدأ ..
وانطلقت .. أو عادت إلى الحياة التي كان انتشلها منها ديماس !
وراجت تنتقل من دار هوى إل دار هوى ، ومن أحضان إلى أحضان ،
إلى أن أطبق عليها المرض ورماتها في الفراش ..
وقاست في مرضها ما قاست ، وحن الأجل ...
وحاولت ألفونسين أن تنهض من فراشها فلم تستطع .. ونادت :
ساعدوني ! ...

لقد أحست باقتراب ساعتها واشتهت أن تلقى نظرة أخيرة - نظرة الوداع
- على باريس الأناقة ، باريس الترف ، باريس الموسيقى ، باريس الخلاعة
اريس التي أحببتها وعرفت فيها أحلى وأمر أيام حياتها ..

حملوها وقالوا : إلى أين ؟ ..

قالت : إلى مسرح الباليه رويال !

وهكذا كتبت ألفونسين بنفسها المشهد الختامى فى قصتها الخالدة !
لأن مشهد مقصورة الباليه رويال ، وهو المشهد الذى سبق مشهد
احتضارها بدقائق ، لم يمثل مرة على المسرح أو على شاشة السينما أو فى
الأوبرا إلا استدر الدموع والزفرات ..

هذا المشهد كان واقعة حقيقية ولم يبتكره خيال ديماس !

لقد اشتهت ألفونسين أن تشهد مرة أخرى أو للمرة الأخيرة ميدان
انتصاراتها ، فطلبت من خدمها أن يحملوها إلى الحفلة الساهرة التى كانت
مقامة يومها فى الباليه رويال . تاركة وراءها فى قاعة الانتظار فى مسكنها
رهطاً من الدائنين ..

وأجلسوها فى مقعد فى مقصورة وتلفتت إليها العيون ، وقد أنكرها
الكثيرون ، ترى من تكون هذه الفتاة المريضة ؟

الداء الوبيل سرى فيها وشوه جمالها ..

وهمس أحدهم : هذه « غادة الكاميليا » .. فقد كان هذا هو لقبها
المعروف فى باريس ..

وانفرجت شفاتها الباهتتان عن ابتسامة .. وخيل إليها فى سكرة الموت
أنها ماتزال! - كما كانت - محط الإعجاب وكعبة الأنظار ..

ثم سقط رأسها إلى الخلف ! وهكذا ماتت .. وكانت موسيقى الرقص
تعزف لحن العاشقين ! ..

كابري جزيرة النعاج وكعبة العشاق

ربيع ١٩٤٩ :

كابرا ، كلمة لاتينية معناها « نعجة » وجمع كابرا كابري أى نعاج . وجزيرة كابري معناها إذن جزيرة النعاج !
فهل ترى هناك علاقة أو وجه شبه بين النعاج والعشاق وحديثي العهد بالزواج ؟ .. وهل لهذا السبب أصبحت جزيرة النعاج هى الملجأ المختار للعشاق وطلاب شهر العسل يمارسون فيها ألوان الحب .. ويتمرنون فيها على ألوان الطاعة والخضوع حتى يصبح الرجل الغضنفر فى وداعة وهدوء وأستسلام النعاج ! بعد أن يسلم أو يسلس قياده لزوجته أو حبيبة القلب والفؤاد !

كل شىء مباح هنا فى كابري . الحب الصريح الذى يعلن عن ذاته بالقبلات .. مباح !
القبلة فى الطريق أمر مباح !
وهصر الحصر فى الطريق شىء مباح .. لا يستحق من العابرين لفظة رأس .

وضم الحبيبة إلى الصدر فى ميدان أمبرتو الأول أكبر ميادين الجزيرة .
شىء لا يلفت النظر ! إلا ابتسامة من رجل البوليس الذى ينظم حركة المرور ! .. فقد يبتسم وتبارك عيناه العاشقين ! ..
وعلى شاطئ البحر .. تسترخى الأجساد فوق الرمال البيضاء ..
أجساد شقراء وسمراء وخمرية اللون حاولت - ولكن فى غير جهد -

أن تستر في لباس الحمام الزاهي اللون .. من أحمر قان .. أو أصفر ..
أو أزرق .

لباس يكشف أكثر مما يخفي ! وإن هو أخفى شيئاً فإنما يخفي ما أمر
الله بإخفائه .. ولا أكثر !

وتسترخي الأجسام فوق الرمال ..

وشباب ينحني من فوق شباب ..

هذا شاب أمسك بين راحتيه ببرتقالة وراح يعصرها .. وفم الحبيبة
يلتقط العصير .. وقد تخطى يده الحساب والتقدير - وربما عن قصد -
وتساقط قطرات العصير فوق العنق والصدر وما إلى العنق والصدر وهنا
يهوى الشاب بفمه ويمسح القطرات بشفتيه !

أمر لا يلفت النظر ! لأن كلا في شغل شاغل عن صاحبه وأخيه !
وامرأة ترتدي سروالا أحمر اللون من فوقه قميص (بلوزة) أصفر
اللون وقد شدت حول خصرها الممتلئ حزاماً عريضاً أخضر اللون ..
ولفت رأسها بمنديل أحمر .. وفي أذنيها أقراط من المرجان !

امرأة أعطاهما الله من كل شيء ولكنه لم يعطها الجمال !

أما الشباب فلم يبق لها منه إلا الذكريات .. ولكن ماذا يهم ؟
إنها أمريكية من صاحبات الملايين .. وإذا كان المال يشتري
السيارة الفخمة ، ويشتري الدار الأنيقة ، والطعام الحسن ، والشراب
الشهي والجواهر . فلم لا يشتري المال الشباب والوجه الجميل ؟
لم لا يشتري الدولار « أدونيس » في شخص شاب من أهل
الجزيرة ؟

وتقبل صاحبتنا الأمريكية وهي تستند إلى ذراع إله الجمال وهو
شاب من أهل الجزيرة قد احترف مهنة بيع الشباب والجمال ..
شيء لا يلفت النظر ! لأن كل شيء في كابري مباح !

وفى قاعة الطعام فى الفندق الذى نقيم فيه .. ما من مائدة إلا جلس إليها زوجان .. ذكر وأنثى ! أو كما قال صديقى وزميلي فى هذه الرحلة أحمد الألفى عطية .. (كل الأحبة اتنين اتنين) .. إلا مائدة واحدة جلس إليها خنشوران ! .. ولا أنثى بينهما !
وهى مائدتنا نحن ..

ويتنهد صديقى وهو ينظر إلى ويقول : بأه دى خلقة !
وأقول له : ومن قال لك أن تطيل النظر فى المرأة ؟ !

* * *

وجزيرة كابرى تبعد عن ميناء نابولى نحو عشرين ميلا تقطعها
بواخر صغيرة سريعة فى نحو ساعتين ...
ومساحة الجزيرة نحو أربعة أميال مربعة ، ويبلغ عدد سكانها ثمانية
آلاف نسمة ...

وكابرى تتكون من جبلين متوسطى الارتفاع ، إذ يعلو الواحد منهما
عن سطح البحر نحو ألف قدم . وبين الجبلين منبسط عريض من
الأرض المستوية .. وعلى جوانب الجبلين وفوق القمتين قامت الدور
« الفيلات » الأنيقة ما بين بيضاء وصفراء وحمراء وزرقاء اللون ، وقد
تناثرت جميعها فوق رقعة خضراء ، هى الأشجار التى تكسو كابرى
وجبلها الاثنى .

دور يملكها سادة المال ، وسادة العلم والفن ، من كتاب عالمين
وموسيقين وقصصيين ملء السمع والبصر ، أسماؤهم على كل لسان ..
ودور تؤجر للعشاق وطلاب شهر العسل ، يتذوقون فيها وفى نعيمها
ألوان الحب ، ويسبحون فيها بحمد الله .
ودور يقيم فيها خزان الدموع والذكريات .. ! نعم ، ما أمر الفراق
وما أحر اللوعة !

زوج خاب أمله وزواجه . فجاء إلى كابرى ..

وعاشق خاب في حبه . فجاء إلى كابرى ..

وحبيب فرق الموت بينه وبين تلك التي أحب . فجاء إلى كابرى !

جاءوا يلتمسون في كابرى الهادئة الوديعه .. الجزيرة المنعزلة ..
بطرقاتها الصاعدة إلى قمة الجبل ، وطرقاتها الملتوية الضيقة الهابطة إلى
شاطئ البحر .. وبين أشجارها الخضراء الكثيفة ، تسكنها طيور تغرد
عند مطلع الفجر ، وتغرد عند مغرب الشمس .. جاءوا يلتمسون فيها
السلوى ...

وقد تقع عيننا الواحد منهم - ولابد أن تقعا - على مشهد غرام في
كابرى .. فتبتسم شفتاه .. وقد تدمع عيناه .. ويخفق قلبه إذ تعود به
الذاكرة إلى عشرين أو ثلاثين عاماً إلى الوراء .. هذا المشهد .. كان
مشهده هو مع الزوجة التي خانت .. أو الحبيبة التي غدرت ..
أو تلك التي فرق الموت بينها وبينه !

ثم يمضى في طريقه إلى مأواه فوق القمة أو عند سفح الجبل ،
ليستأنف حياة الذكريات !

وكنت زرت كابرى لأول مرة في أواخر مارس ١٩٣٨ وكان أول
ما طالعني يومئذ في كابرى هي تلك العبارات الفخمة الطنانة الرنانة
التي كان ينثرها موسوليني في خطبه فتذهب مذهب الحكم والأمثال !
وتبادر الهيئات الحكومية والمجالس البلدية إلى نقشها على جدران المدينة
وعند مفترق الطرق بحروف يبلغ ارتفاع الحرف الواحد منها نحو مترين !
وقد قرأت يومئذ على جدران الدور المحيطة بميناء كابرى : « الطاعة
والتنفيذ والنظام » والإمضاء ... موسوليني !
وقرأت : « إن تاريخنا هو تاريخ المدينة لألنى عام » والإمضاء ...
موسوليني !

واليوم - وقد زال موسوليني .. ودالت دولته - زالت العبارات بعد أن
بادرت نفس الخيئات الحكومية ونفس المجالس البلدية إلى محوها من على
الجدران !

ألا ما أجحد الإنسان !

وعلى بعد بضعة أميال من كابري تقوم جزيرة « أشيا » التي تقيم
فيها أرملة موسوليني السيدة راشيل ، ومعها أصغر أولادها سنًا رومانو
وحناماريا .. ويتحایل الثلاثة على كسب عيشهم ، ولكنهم لا يصيبون
منه سوى الكفاف !

والأيام دول ... وسبحان المعز المذل !

ولقد زارت « البرنسيس مرجريت روز » صغرى كريمتى ملك
إنجلترا جورج السادس إيطاليا وجزيرة كابري .. وكانت رحلة الأميرة
إلى إيطاليا موضع الدهشة والتساؤل والإشاعات .. إذ لم يسبق للأميرة
ملكية فى مثل سنّها الصغيرة - وخصوصاً فى البيت المالك الإنجليزى
المحافظ المتمسك بالتقاليد - أن تقوم وحدها برحلة إلى القارة !

ومن هنا نشطت الصحف والمجلات .. وخصوصاً فى إيطاليا ،
وعلى الأخص الصحف الشيوعية منها !

قالوا بين ما قالوه إن الأميرة الصغيرة - وهى معروفة بقوة الشكيمة
وصلابة الرأى أو صلابة الرأس - قد وقعت فى هوى إنجليزى ليس بذى
مقام تسمح معه التقاليد بزواجها منه ، ولكنها أعلنت والديها العظمين
بأنها تحبه ، وأن شيئاً لن يحول دون زواجها منه !

ومن هنا اقترح والداها حلاً وسطاً ! وهو أن تمضى إلى إيطاليا فى
رحلة شهر تراجع فيه قلبها ونفسها .. فإذا رأت بعد عودتها أنها لا تزال
تحب الفتى .. فليكن لها ما تريد !

وقالوا العكس ! .. أى أن الأميرة الصغيرة أحبت ، ولكن الذى

أحبته لم يبادلها حباً بحب ، ومن هنا التمت من والديها أن يسمحا لها بهذه الرحلة .. لعلها تنسى وتسلو !

أما الجريدة الشيوعية « الباييزى » التى تصدر فى روما فقد كتبت تقول إن هناك احتمالاً قوياً فى أن تتم مقابلة الأميرة مرجريت روز مع الأمير شارل الوصى على عرش بلجيكا فى أثناء هذه الرحلة ؛ لأن زيارة الاثنين لروما وفلورنسا سوف تقع فى وقت واحد .. واختتمت الجريدة مقالها بقولها : « ترى هل تلقى الأميرة الإنجليزية فى روما زوجها الموعود ؟ إن قران الأمير البلجيكى بكريمة ملك إنجلترا سوف تترتب عليه آثار سياسية لا يمكن إغفالها ؛ فإن بلجيكا وهى إحدى الدول المستعمرة ليس لديها أسطول يذكر . ولا شك أن فى مصلحتها أن تربط نفسها إلى إنجلترا التى حرص أسطولها الضخم على حماية ممتلكات المستعمرتين مثل بلجيكا وهولندا » .

* * *

أما شيوخ الجزيرة - جزيرة كابرى - فقد هزوا رؤوسهم عندما طلعت عليهم مرجريت روز بوجهها المشرق وثغرها الباسم ، وقالوا إن الأميرة لابد أن تكون عاشقة ! .. لأنه ما من أحد يزور كابرى إلا إذا كان عاشقاً أو زوجاً أو خطيباً ..

ولقد تصادف وجودى بالجزيرة فى أثناء زيارة الأميرة الحميلة .. واحتشد فى كابرى مراسلو صحف العالم وشركات الأنباء ، وراحوا يبرقون بأدق التفاصيل ، ومن ذلك طعام الغداء التى تناولته الأميرة أول يوم ، وهو مكون من أرز بكبدة الفراخ ، ولحم مشوى وإسبرج ونبيد أبيض .. وبعدها القهوة وقدر صغير من شراب الكوانترو !

ولقد أثرت الأميرة وحاشيتها المكونة من سيدتين وشابين - لعلهما من رجال سكوتلانديارد - أن ينزلوا فى فندق من فنادق الدرجة الثانية

بالجزيرة .. تفادياً لزحام الفضول !
 وقد زارت الأميرة الآثار الرومانية في الجزيرة ومن بينها « الفيلا »
 التي كان يقيم فيها الإمبراطور طيبيرييس ، وكانت كبرى مقره
 المفضل ، بل كانت في عهده أشبه بعاصمة الإمبراطورية الرومانية ،
 حيث كان يقيم فيها إقامة متصلة ويدير منها سياسة الملك !
 وزارت المؤلف العجوز أدوين شريو في داره الواقعة على شاطئ
 الجزيرة .

وكان في نيّتها أن تزور جزيرة أشيا حيث تقيم أرملة موسوليني ،
 ولكنها عدلت في آخر لحظة عن هذه الزيارة .. والسبب الرسمي هو
 اضطراب البحر في ذلك اليوم !

ولكن البحر مظلوم فقد كان أهدأ ما يمكن أن يكون !
 ولهذا .. زعموا أن السلطات المحلية التمت من الأميرة العدول عن
 زيارة أشيا حتى لا تقابلها أرملة موسوليني .. وقد تستغل الصحف الشيوعية
 هذه المقابلة وتقول مثلاً إن كريمة ملك إنجلترا الفاشية تزور أرملة مؤسس
 الفاشية !

ثم غادرتنا الأميرة مرجريت روز إلى روما ومنها إلى باريس .
 وكنا جالسين — أنا وأحمد الألفي — في أحد مقاهي ميدان أو مبرتو
 الأول حين أبصرنا شبه زحام حول سيارة مكشوفة وقف يحرسها رجالان
 من رجال الشرطة ...

وعرفنا أنها السيارة التي سوف تقل مرجريت روز إلى ميناء الجزيرة
 لكي تركب الباخرة إلى نابولي ...

وأقبلت الأميرة .. ولم يكن بينها وبيننا سوى بضع خطوات .
 وقد دهشت ، لأنها تبدو في صورتها التي تنشرها الصحف أطول
 قامته وأكبر « حجماً » مما هي عليه .

والحقيقة أن مرجريت روز قصيرة القامة، نحيلة، رقيقة التقاطيع .
تبدو كأنها لا تزال في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها ...
أحلى ما فيها عيناها !

وفمها الذي يفتر عن ابتسامة لا أثر فيها للتكلف أو الصناعة !
وكانت تحمل فوق ذراعها باقة من القرنفل الأحمر تضمها إلى
صدرها ...

والتفتت إلينا بتبسم وتحي قبل أن تنطلق بها السيارة .
وصفقت الجماهير .. وتمهد صديقي أحمد الألفى عطية مرة أخرى !

مونت كارلو : « كارت بوستال » بالألوان !

مايو ١٩٤٩ :

كان البرنامج المتفق عليه أن نمضي في جزيرة كابرى أسبوعاً أو عشرة أيام ، ومثلها في روما ، ثم ننتقل بالسيارة من روما مارين بفورميا وجروسيتو وليفونو وبيزا - و برجها المائل إحدى عجائب الدنيا السبع - إلى جنوا ومنها إلى الريفيرا أى سان ريمو ومونت كارلو ونيس وكان ... إلى آخره .

كان هذا هو المتفق عليه بينى وبين صاحبي في هذه الرحلة .. ولكن صاحبي غجری !! وإن ترفقت به فقل « بوهيمى » ! ولا عجب فهو النائب المحترم للدائرة الانتخابية التى تقع في زمامها سنباط التى تورد لأنحاء القطر كافة حاجتها من الرقصات (الغوازي) والغجريات ندق ونظاهر ونبين زين ونشوف البخت !

لم تكد تمضي علينا أيام ثلاثة في كابرى حتى بدأ صاحبي يدمدم ويتململ ويتبرم بهذا الجمال الساحر الذى يحيط بنا من كل جانب ! جمال الخالق وما خلق ! الجبال وصخورها البركانية بين زرق وحمرة وسود ! والغابة الخضراء ، والزهور في ثورة من الألوان الزاهية ... والبحر وماؤه الذى في لون الزبرجد الصافي . ورمال الشاطئ الأحمر .. والأجساد التى تتوسد الرمال .. تطلب دفء الشمس بعد الاستحمام ! ويبعث مراهاة الدفء في الصدور !

والنظرات التى تتلاقى .. والشفاه التى تلتقى .. والأذرع تحيط

بالخصور ! والرءوس تتوسد الأكتاف ! ..

وضج صاحبي وصاح أنه من لحم ودم ! وأن أعصابه ليست من حديد !
قلت له : ألا تستطيع أن تهوى الجمال وتقنع منه بالنظر ؟
قال : كلا ! والكلام ده قوله لغيري ! وأنا لا أطيق الجمال الذي
لا أستطيع أن أمد له يدي !

وتركني في كابري ، وسبقني إلى نابولي . واضطرت أن أختصر
راحتي - وما كان أحوجني إليها - وأن ألحق به .

ومن نابولي ذهبنا إلى روما .. ولكننا لم نكد نستقر في روما الخالدة
مهد الفن والشعر والجمال حتى أعلن صاحبي - بعد يومين اثنين -
أنه قد انتهى من مشاهدته كل ما يستحق المشاهدة في روما ! وأنه يحسن
بنا أن نستأنف الرحيل ..

انتهى من مشاهدة روما بعد يومين اثنين ! مع أن هذه أول مرة
يزور فيها روما ..

وأنا قد أمضيت في عام ١٩٣٢ أسبوعاً كاملاً في مشاهدة متحف
الفاتيكان وحده ! ومع ذلك لم أر كل ما كان ينبغي أن أراه !

والكوليزيوم والكابيتول والفورام ومقابر شهداء المسيحية الأول ..
والمتاحف العديدة التي تغص بها أغنى مدينة في ثروة وتراث الفنون !

ولكن صاحبي ألح في أن نستأنف السير . لأن روما بلد قديم
مملوء بالمقابر ، وهو ما يبعث الكآبة في نفسه !

وقطعت إقامتي في روما ، وانطلقنا بالسيارة . وكان يقودها بنفسه .
تقطعنا المرحلة من روما إلى جنوا ، وهي أكثر من خمسمائة كيلومتر
في نهار واحد .

وأشهد أن صاحبي هذا من أمهر من عرفت في قيادة السيارة ،
بل هو لا يقل مهارة عن سائقي السيارات في جبل لبنان ، وهم الذين

اشتهروا ببراعتهم في قيادة السيارة في طرق الجبال !
وقيادة السيارة في طريق مستو شىء وقيادتها في طرق الجبال شىء
آخر !

وتصور طريقاً لا يزيد عرضه على أربعة أمتار ، وقد تنقص ..
وإلى يمينك جدار من الصخر - هو الجبل - يرتفع مئات الأقدام ،
وإلى يسارك هاوية تهبط مئات الأقدام إلى الوادى السحيق ..
هذا والطريق يتلوى كالشعبان فلا تستطيع أن تمشى في خط مستقيم
أكثر من أمتار قليلة .. ثم يتلوى الشعبان إلى اليمين أو إلى اليسار ..
أو يتسلق هضبة .. أو يهبط بك فجأة .. وعلى الذى يقود السيارة أن يكون
حديد البصر وأعصابه من حديد ! وألا ينظر إلى أسفل وإلا خيف عليه
من الدوار ! وأن تكون إحدى يديه على عجلة القيادة .. ويده الأخرى
تنتقل بين مفاتيح السرعة ، وقدماه بين ضاغط البنزين وبين الفرامل ! ..
في كل لحظة خطر إن هو تردد أو شرد .. وانحراف بسيط في تقدير دائرة
المتعرجات - ويسمونهم الأكواع في لبنان - قد يهوى بالسيارة وركابها
إلى الهوة السحيقة !

ولكن المناظر كانت رائعة ! وقد كسا الربيع إيطاليا بأبهى حلل
الجمال ..

مياه البحر تضىء من بعيد إلى اليسار ..
والثلوج لا تزال تكلل هالات الجبال ..
وأشجار وأزهار الجبل طول الطريق ، وكأننا نخترق حديقة غناء
لا أول لها ولا آخر ..

وكنا إذا اخترقنا شارع إحدى قرى الجبال خرج صغار القرية
يلوحون لنا بأيديهم ، أو يرسلون لنا على أطراف أصابعهم الصغيرة قبلات
في الهواء !

وقلت لصاحبي : ليت أحدهم يقدفنا بضوبة ! فقد اشتقت إلى قرى مصر ومن فيها وما فيها !

وأمضينا الليل في إحدى ضواحي جنوا ..

وفي الصباح استأنفنا السير ووصلنا إلى مونت كارلو عند الظهر .
وصلنا إليها قبل الموعد الذي كنا قد رناه في برنامج الرحلة بنحو أسبوع !

وتهد صاحبي : ونحن ندخل البلدة الأنيقة الجميلة التي تشبه في جمالها ودقتها « كارت بوستال بالألوان » تهد وقال : هذا هو البلد الذي تطيب النفس لجماله وتستريح ! .. سوف نبقي هنا شهراً يا أستاذ !
ولكنني سكت ولم أرد عليه !

وبعد ثلاثة أيام فقط دخل صاحبي على يقول إن الشيطان شاطر !
وإنه يحسن بنا أن نترك هذا البلد الملعون ...

سألته : لماذا ؟

قال : الكازينو يا أستاذ ! .. أخرج من الفندق فأجد الكازينو أمامي ... وأعود إلى الفندق فأمر بالكازينو .. وإغراء اللعب شديد .
وأنا لا أريد أن أعصى الله وألعب القمار !
قلت : وأين قوة إرادتك ؟ ..

قال : الكلام ده تقوله لغيري ! .. أنا أعصابي ليست من حديد !

قلت : والنهاية ؟

قال : نسافر غداً إلى باريس ...

قلت : في كابيرى لم تطق صبراً على الجمال ! وفي روما لم تطق صبراً على المقابر ودور التحف والآثار ! وفي مونت كارلو تخاف شيطان القمار ! ..

قال : نذهب إلى باريس ... ونجرب بختنا !

قلت : إذن تسافر وحدك ، لأننى لم أقم بهذه الرحلة لكى أضرب الرقم القياسى فى حط الشنط ، وشيل الشنط ، وفى سرعة التنقل من بلد إلى بلد ! .. إننى متعب ، ولقد أمضيت أسبوعين وأنا أشبه بالغجر الرحل .. دائماً فى الطريق .. أصبح فى بلد وأمسى فى بلد ! وتركنى صاحبى وانطلق بسيارته إلى باريس ! وكان هذا منذ أربعة أيام ! ومن يدرى ، لعله اليوم فى لندن أو فى مدريد !

* * *

وأعود إلى سياق الحديث ... دخلنا مونت كارلو ، فإذا بالأعلام منكسة ، وقد ربطت إلى سيقانها شارات الحداد السود وأدركت أن البرنس لويس الثانى أمير موناكو قد توفاه الله ، فقد كنت قرأت فى صحف روما أنه مريض ، وأن العلة قد اشتدت به حتى إن ولى عهده - وهو حفيده - قد تولى شئون « الملك » بالنيابة !

هذا وقد غطيت جدران موناكو ومونت كارلو وبقيّة قرى الإمارة بالإعلانات التى ينعى فيها وزير الدولة - نعم فهناك وزير للدولة فى إمارة موناكو التى هى فى حجم طابع البريد - ينعى فيها إلى شعب موناكو الوفى الأمين « مولاه العظيم الراحل الكريم الذى اختاره الله لحوزة بعد مرض مؤلم طويل ، وهو فى سن الثامنة والسبعين ، قضى منها ٢٧ عاماً على عرش أسرة جريمالدى ، وهو يعمل لخير شعب الإمارة بما عرف عنه من الحكمة وأصالة الرأى وحسن التدبير » . ثم أهاب وزير الدولة بشعب موناكو أن يقابل الفجيعة بشجاعة وجلد ، وأن يلتزم فروض الحداد طول الأسبوع الذى سوف ينقضى قبل الاحتفال بتشييع جثمان الأمير الراحل إلى مثواه الأخير !

ومن فروض الحداد أن يبطل عزف الموسيقى — حتى من الراديو — طول الأسبوع .

ووضع رعايا إمارة موناكو شارات الحداد على أذرعهم أو في عرى ستراتهم ، وأقفلت الكاباريهات أبوابها ..
ولأول مرة منذ ٦٠ عاماً — أى منذ تشييد الكازينو وافتتاحه في عام ١٨٨٩ — أقفل كازينو الميسر ذو الشهرة العالمية أبوابه ..
أقفلها ولكن ليومين اثنين ..

يوم الوفاة .. الاثنين ٩ مايو ، ويوم تشييع الجثمان .. الثلاثاء ١٧ مايو .

وكان الأمير الحديد — واسمه البرنس رانييه — يريد أن يغلق الكازينو أبوابه طول الأسبوع ، أى إلى ما بعد الاحتفال بدفن الأمير الراحل ، ولكن مجلس الدولة اعترض ، والحكم في إمارة موناكو يجرى على سنن الدستور !!

وقال المجلس في تأييد اعتراضه إن خزانة موناكو لا يمكنها أن تحتل خسارة نصيبها من أرباح كازينو القمار لمدة أسبوع ! .. وإن المرحوم نفسه ما كان ليوافق على إغلاق الكازينو، ودلّوا على صدق قولهم بأنه لما توفي البرنس ألبرت أبو المرحوم اقترح بعض رجال البلاط أن يغلق الكازينو أبوابه يوم الوفاة .. ولكن لويس الثاني العظيم قال قوله الحكيم المشهور وهو أن الحزن على فقد أعزائنا أمر طبيعي ، ولكن الحزن مهما بلغ لا ينبغي أن ينسى الحاكم مصلحة الدولة ومصلحة الرعية ، ومصلحة الدولة والرعية هي في أن يبقى كازينو القمار مفتوح الأبواب !
وكانت حجة مجلس الدولة قوية لا ترد

ومن هنا اكتفى الأمير رانييه بإغلاق الكازينو يومين اثنين حداً على المرحوم !

والأمير الحديد - وقد اتخذ لنفسه اسم رانييه الثالث - في السادسة والعشرين من عمره ، وهو ضابط - أو كان - في الجيش الفرنسي وقد حارب في صفوف الحلفاء في معارك ١٩٤٤ في فرنسا ، وأنعم عليه بعدة أوسمة حربية .

وهو حفيد الأمير الراحل ، ووالدته البرنيس شارلوت كانت مشهورة بحبها للأدب والفنون ، وكان لها أصدقاء كثيرون بين رجال الصحافة ، وكثيراً ما استضافتهم في قصرها بمونت كارلو .
وصادر أمس بوليس موناكو أعداد بعض الصحف الإنجليزية ، ومنها الديلي تلغراف ، والديلي إكسبريس لأنها نشرت - بمناسبة تولية البرنس رانييه الثالث عرش إمارة موناكو - بعض مغامراته أيام كان يطلب العلم في إنجلترا وفي فرنسا ! .. كما أنها قالت إن هناك من يطالب بعرش موناكو ، ويزعم أنه أحق من الأمير الحديد بعرش أسرة « جريمالدي » وإن الأمير رانييه قد يواجه في مستهل عهده مصاعب وقلاقل ... إلى آخره !

ومن هنا ترون أن إمارة موناكو تلجأ إلى مصادرة الصحف في بعض الأحوال ، برغم أن الحكم فيها شوري ، وعلى سنن الدستور !
وكان الأمير الراحل لويس الثاني تزوج بعد أن جاوز سن الستين ممثلة فرنسية كانت تعمل في « الأوبرا كوميك » ولوى يومها شيوخ الإمارة شفاهم ، ولكنهم سكتوا احتراماً للأمير .

ويتساءل اليوم « حنابلة » موناكو : هل يأذن الأمير الحديد لهذه الممثلة - أرملة جده - بالبقاء في قصر الإمارة ، أو يعيدها إلى بلدها باريس بعد أن يربط لها معاشاً شهرياً من إيرادات البكاراه والروليت والشمان ده فير !

وازدحمت مونت كارلو طول الأسبوع ازدحاماً لم تعرفه في أوج

موسم الشتاء . فقد أُقبل عليها مئات ومئات لكي يشهدوا الاحتفال
بجنازة لويس الثاني ، وقد خلعت عليه مرة إحدى المجلات الإنجليزية
لقب « حامى حمى القمار » !

وفي المساء السابق على يوم تشييع الجثمان ازدحمت قاعات كازينو
الميسر بأعضاء الوفود الرسمية الحكومية واخيئات التي أُقبلت للمسير في
موكب الجنازة ، وبينهم عدد كبير من ضباط الجيش والأسطول
الفرنسي .

ونشط اللعب على موائد الروليت والبيكاراه !
ومن ربح ترحم على الأمير الراحل ... أما الذين خسروا .. فآله
يتولى حسابهم على ما فاهوا به في حق الأمير !

* * *

واستمر احتفال الجنازة ثلاث ساعات كاملة : من منتصف العاشرة
صباحاً إلى منتصف الأولى بعد الظهر . بين الصلوات والدعوات
والتراتيل والأناشيد وحرق البخور . هذا والمدعوون والمشيعون واقفون على
أقدامهم ... وأجراس كنائس الإمارة - موناكو ومونت كارلو وبقية
القرى - تقرر ..

والمدفع الوحيد الذي تملكه دولة إمارة موناكو - وهي لا تملك سواه
لأنها من الدول المحبة للسلام وكانت بين أول من لبوا الدعوة إلى تخفيض
السلاح - هذا المدفع الوحيد ، وهو موضوع في برج قائم على صخرة
موناكو ، كان يطلق مرة في كل خمس دقائق أثناء الساعات الثلاث ..
وكانت هناك في ميناء مونت كارلو طراة فرنسية اشتركت مع
المدفع المذكور في تحية الجثمان ببعض الطلقات ! كما أن طائرتين
فرنسيتين حلقتا فوق الإمارة في أثناء سير موكب الجنازة .
وإمارة موناكو تحت الحماية الفرنسية ، كما أن أميرها الراحل وأميرها

الحديد كلاهما كان ضابطاً بالجيش الفرنسى .
وقد حمل نعش الأمير الراحل إلى مثواه الأخير أربعون اختيروا
من أبناء أعرق أسر موناكو ، وكانوا يرتدون الشباب التاريخية
التقليدية السوداء اللون التي يرتديها « طائفة إخوان الرحمة النادمين » ..
ولما أنزل النعش إلى اللحد نفخ البورى نوبة الوداع ...
ولعل أكثر الناس حزناً على وفاة الأمير لويس الثانى هم طائفة
موظفى الفنادق والكازينو من جرسونات و « كروبييه » وصرافى النقود ،
فقد كان غفر الله له يقول دائماً إن حياة مونت كارلو متوقفة على إقبال
السائحين ولعب الميسر ، وكلا الأمرين يتوقف نجاحهما على حسن استقبال
ومعاملة السائحين . ومن هنا كان كثير العطف والحدب على موظفى
الفنادق والكازينو ، حريصاً على إرضائهم حتى يقبلوا على تأدية واجباتهم
بنفس راضية !

وثلاثة أرباع عدد الذين شيعوا الجنازة كانوا من هذه الطوائف :
الجرسونات و « الكروبييه » وصرافى النقود !

والغلاء فى مونت كارلو لا يدانيه غلاء فى أى بلد فى العالم . فطبق
الحساء « السادة » وطبق لحم مشوى « بفتيك » أو ما أشبه ونصف زجاجة
ماء معدنى هذا الوجبة تكلف ألف فرنك أى جنيها فى بعض المطاعم !
وهذا طعام المرضى الذين يتبعون مثلى « الرجيم » الخاص ! فما بالك
بالأصحاء الأقوياء سليمى المعدة والأمعاء !

ولهذا فإن معظم رواد مونت كارلو هذا العام هم المحظوظون أبناء
بلاد العملة الصعبة ، مثل سويسرا والسويد وأمريكا ... وخصوصاً
أمريكا الجنوبية !

وهنا كذلك عدد لا بأس به من السيدات والسادة الإنجليز ، وهم

يمرحون ويطعمون ويشربون في أفخر الفنادق والمطاعم . ويلعبون
في الكازينو ...

* * *

كنت رأيت هنا منذ عامين شاباً سورياً آمن أعرق أسرات سوريا .
وكان أبوه – وقد توفى إلى رحمة الله – رئيساً للدولة السورية في وقت ما ...
وكنت سمعت عنه روايات وحكايات ليس فيها ما يشرف !
وقد شكّا لي يومئذ « بارمان » فندق ده باريس أن الشاب المذكور
اقترض منه خمسة وعشرين ألف فرنك .. وغادر مونت كارلو دون أن
يردها .. والمبلغ المذكور كان يساوي يومئذ أكثر من خمسين جنيهاً ،
وهو مبلغ كبير بالنسبة « لبارمان » .
وأخيراً وقع الفتى ! وكان لابد له أن يقع ! فقد أعطى شيكاً في
باريس بدون أن يكون له رصيد في البنك المسحوب عليه الشيك ..
وحكم عليه القضاء الفرنسي بالحبس عشرة أشهر !

* * *

ما أعجب باريس . . وأهل باريس !

باريس — يوفية ١٩٤٩ :

العالم كله يتلفت إلى باريس وينصت إلى ما تذيعه باريس عن مؤتمر وزراء خارجية الدول العظمى الأربع .. وصحف العالم توفد مندوبيها إلى باريس ليوافوها بأخبار الأربعة العظام ..

وصحافة العالم — في الغرب والشرق — تنشر على رأس صفحاتها الأولى وبالبنط الكبير أخبار المؤتمر ، وهل يتمخض اجتماع وزراء خارجية كتلى الغرب والشرق عن سلام أو ما يشبه السلام ... أو عن استئناف الحرب الباردة التي قد تنقلب — بعد عام أو عامين — إلى حرب نار وضرام ! .. إلا باريس فإنها لا تحفل ! وأهل باريس لا يحفلون !

وصحافة باريس — الشعبية والأوسع انتشاراً — تنشر بعرض رأس صفحاتها الأولى وبالبنط الكبير نتيجة مباراة كرة القدم بين فرنسا وسويسرا ، وأن الأولى فازت على الثانية بأربع إصابات ضد إصابتين !! وأن القيود على بنزين السيارات قد رفعت !! وأن الجواد « ياجيرا » قد ربح جائزة ديانا في سباق شانتبي ، ودفع ربحاً قدره ٣٨٧ فرنكاً عن العاشرة الفرنكات .. وأن « جرمين لانفواز » قد صفحت عن عشيقها الذي حز عنقها بموسى حادة ! .. وكان آخر ما سمعه الواقفون حول سريرها في المستشفى : « لقد قتلتني لأنه يحبني ! .. وأنا أحبه ... أوه كم أحبه » ألا ما أقتل الحب !

واحتلت هذه العبارة الصفحات الأولى في صحف باريس ! ..

وأما أخبار مؤتمر وزراء الخارجية فقد نشرت على رأس عمود واحد
في إحدى الصفحات الأخيرة !!
ألا ما أعجب باريس ! وأهل باريس !

الربيع والشتاء :

وقضيت أمسية أمس في أحد مقاهي الشانزلزيه ..
ورواد المقاهي في القاهرة يتحدثون عن السياسة والسياسة . وقد
يتحدث بعضهم عن الغلاء والعلاوات والدرجات .. ولكن زبائن
مقاهي باريس لا يتحدثون في شيء من هذا !
على مقربة مني كان يجلس شيخ وفتاة ! ..
الشيخ أنيق الملبس ، أصلع الرأس ، حاد البصر . وفي عروة سترته
« الزر الأحمر » وهو شارة وسام « اللجيون دونور » من درجة
« قومندان » !

والفتاة في نحو العشرين من عمرها ! سمراء . فاتنة ! .. حلوة .
وفي عينيها « شقاوة » !
الشيخ جاوز الستين ، وهو كما يبدو من مظهره من رجال الدولة .
أو من رجال الأعمال الناجحين !

ونحن جميعاً نعرف « معنى » العلاقة التي تربط بين شيخ في الستين
من عمره وفتاة لاتزال في حدود العشرين !
وفي كل بلد من بلاد العالم يحن الشتاء إلى الربيع . ويلتمس ابن
الستين الدفء بين ذراعي فتاة العشرين . ولكن من وراء ستار .
أو في خلوة أو مأمن من عين الفضول !
وما أكثر شيوخ القاهرة الذين يهونون فتيات الربيع ، ولكنهم أمروا

بالستر إذا ما ابتلوا فأطاعوا ، ومن هنا لن تلقاهم في الشوارع والحانات يعلنون بالقبلات عن غرامهم الأشيب المنكود !

إلا باريس ، وشيوخ باريس ! وكأنما الثورة التي انفجرت في باريس منذ أكثر من قرن ونصف قرن ، ونادت بالحرية والمساواة ، لاتزال حتى اليوم ماضية تهدر !! وهي تنادي اليوم - أو هكذا يخيل للزائر الأجنبي - بأن من حق الإنسان أن يتساوى في الحرية والإباحية مع الحيوان ! كان الشيخ - ابن الستين - يمسك بوجه الفتاة بين راحتيه ، ويقبلها في فمها ، وكانت الفتاة تبتسم في عينيه .. وأحياناً تداعبه وتلحق خده بلسانها !

وزبائن المقهى من أهل باريس في شغل شاغل ! لم يحفل منهم أحد ولم يلتفت منهم أحد إلى هذا المشهد الغرامي بين الشتاء والربيع ! ولكن سيدة أمريكية - والأمريكيون في باريس الآن أكثر من ذباب رأس البر ورمل الإسكندرية - نفرت واقفة تحتج ! ولا شك أنها من بوسطن معقل جماعة « المتطهرين » ، وقالت لولديها وأحدهما فتاة : « هلما بنا ! .. هذا أمر شائن ! »

وجذبتها ابنتها من ذراعها وهي تقول : « لقد جئنا لرى باريس ! وهذه هي باريس ! »

وجلست السيدة الأم ، وهي ترمي الشيخ والفتاة بنظرات يتطاير منها شرر الفضيلة !

أما الشيخ الذي يحل عروة سترته بشارة وسام جوقة الشرف فإنه لم يبال ولم يلتفت ! ولعل في ذمته ودينه أن جميع هؤلاء الأجنيات والأجانب .. مجانين ؟ !

وأما الفتاة الفرنسية فقد ابتسمت ، وخيل إلى أني لمحت في عينيها غمزة خاطفة للفتاة الأمريكية ، وكأنها تريد أن تقول : « ماذا تريد مني ؟ »

إن أعباء الحياة ثقيلة ! .. والشيوخ يقنعون بالقليل ويعطون الكثير ! ..
ولقد اخترت شيخى هذا لأن المال لا يوجد في جيوب الشباب ! »

بلزك بين شهوة النساء وشهوة المجد :

وانطلق « مكبر الصوت » الموضوع على رأس البار يذيع الأخبار من محطة الإذاعة الفرنسية .

بدأ المذيع بأخبار الأربعة المجتمعين في « سراى الورد » ..
واستمر أهل المقهى في حديثهم ! لم يحفل منهم أحد بأخبار الأربعة .
ومضى المذيع .. إلى أن وصل إلى الأخبار الداخلية ..
جماعة أصدقاء بلزك سوف يحتفلون في يوم كذا بقاعة كذا بمرور
مائة عام على مولد الكاتب الأشهر المذكور .

ولهذه الجماعة أو الجمعية فروع في معظم مدن فرنسا .
وأساس شهرة بلزك هو أنه كان أوفر كتاب فرنسا محصولاً ،
وأغزرهم إنتاجاً . فكان يخرج في كل أسبوعين قصة طويلة ! وفي كل
شهر كتاباً !

ومال الشيخ على فتاته يقول لها : « كان بلزك موزع العاطفة بين
النساء والكتابة ! .. أو تتنازعه شهوتان ! شهوة النساء وشهوة المجد !
وكان إذا قضى ليلته بين أحضان امرأة أصبح نادماً يعرض بنانه أسفاً
ويقول : هأنذا قد ضيعت عملاً خالداً على الأجيال القادمة ! »

وقالت الفتاة الشقية : « لماذا ؟ إننى لم أفهم ! »
وضحك الشيخ وقبلها في أذنها وقال : « لاتفهمين ؟ .. كان بلزك
يصبح بعد ليلة غرامه متعباً منهوك القوى لا يستطيع الكتابة لعدة
أيام ! »

وقالت الفتاة بدلال : « آه ! أوه ! »
ثم ألقت في أذن الشيخ بهمس لم أسمعه !!
وضحك الاثنان !

زهور الشر :

وانطلق المذيع في أخباره الداخلية ..
« قضت محكمة النقض والإبرام بإلغاء الحكم الذي كان صدر ضد
الشاعر بودلير في يوم ٢٠ أغسطس عام ١٨٥٧ » .
وهو حكم طريف رد على الشاعر المذكور اعتباره بعد وفاته باثنين
وثمانين عاماً !

وها هي ذى القصة :

كان الشاعر بودلير نشر في عام ١٨٥٧ ديوان شعر عنوانه « زهور
الشر Loc Flure du Mal » . وقدمته النيابة العمومية . يومئذ
للمحاكمة بتهمة نشر ما فيه إخلال بالآداب العامة .

وحكم عليه القضاء بغرامة قدرها ثلثمائة فرنك ، أرى ما قيمته ١٢
جنيهاً في ذلك الوقت !

وقد أثر هذا الحكم في « سمعة » الشاعر بودلير . وجعل الناشرين
في ذلك العهد يترددون في نشر دواوين شعره خوفاً من أحكام الغرامة
والتعويض التي قد تصدر ضدهم .

وعبثاً حاول بودلير إلغاء الحكم المذكور . وأخيراً لجأ إلى الإمبراطورة
أوجيني ، زوجة نابليون الثالث ، ورفع إليها مظلمة واستعطافاً .
وكل ما أمكن الإمبراطورة أن تصنعه للشاعر هو أن الغرامة خفضت إلى
خمسین فرنكاً ، أى إلى جنيھين !

ومات بودلير . ومرت الأعوام ...

وفي عام ١٩٤٦ صدر قانون يخول المحاكم الفرنسية حق إعادة النظر في الأحكام الصادرة ضد المؤلفين في المواد الخاصة بالآداب والأخلاق على شرط ألا يعاد النظر في الحكم إلا بعد مرور عشرين عاماً على تاريخ صدوره !

والحكمة في ذلك أن ما عُدَّ إخلالاً بالأخلاق والآداب العامة منذ عشرين عاماً قد لا يعد اليوم كذلك !
ومنذ بضعة أشهر التمت جمعية رجال الأدب إعادة النظر في قضية الشاعر بودلير .

ونظرت القضية . ووقف ممثل النيابة العمومية يلتبس من هيئة المحكمة إلغاء الحكم ويقول : « يوم صدر الحكم قال بودلير عن قضائه : « لقد رأيت قضائي ، وعمري ما رأيت وجوهاً أقبح خلقه من وجوههم ، ولا شك أن قلوبهم لا تختلف عن وجوههم ! »
وابتسمت هيئة المحكمة .

ومضى ممثل النيابة العمومية يقول : « ولكنني أعرف وأنا ألتبس منكم إلغاء الحكم أن القضاء لا يعرف الحق ولا الضغينة مهما تكن قسوة الوصف الذي رماه به بودلير . »
وحكمت المحكمة بإلغاء الحكم ..

وهكذا رد القضاء على بودلير اعتباره بعد ٨٢ عاماً من صدور الحكم المذكور !

بطلة القصة :

وفي معرض الحديث عن الأدباء والشعراء أذكر أنه قد أقيمت هذا الأسبوع حفلة تأبين للكاتب البلجيكي المشهور ميترلنك الذي توفي

في الشهر الماضي بمدينة نيس .

وميتزلنك معروف بقصصه عن الطيور والحيوان ، ومن أشهرها
- في مصر على الأقل - قصة العصفور الأزرق ..

ويروون عنه الحكاية الآتية :

سمع أحد كبار مخرجي السينما في هوليوود عن ميتزلنك وشهرته
وصيته كقصصي وكاتب ناب ، فكتب إليه يعرض عليه خمسين ألف
دولار ثمناً لقصة يضعها للسينما .

وأجاب ميتزلنك الطلب .

وبعد شهرين أرسل القصة المطلوبة إلى مخرج السينما في هوليوود .
وفتح المخرج الطرد فوجد بضع مئات من الصفحات المكتوبة على
(التيريتير) أي الآلة الكاتبة .

ولم يكن عنده وقت لتلاوة القصة يومئذ .

ولكنه جلس وكتب « شيكاً » بالمبلغ المتفق عليه وهو خمسون ألف
دولار ، وأرسله إلى ميتزلنك ..

وبعد بضعة أسابيع تذكر المخرج قصة ميتزلنك - وكان خالياً يومها
من العمل - فأخرجها من درج مكتبه ، وأغلق على نفسه الباب ،
وأصدر أمره ألا يدخل عليه أحد لأنه مشغول !

وبعد نحو ساعة فزع مرءوسوه وموظفوه عندما رأوه خارجاً من غرفة
مكتبه وهو يشد شعر رأسه ويصيح بما معناه : الحقوني ! يا أنا مجنون .
يا ميتزلنك هو اللى مجنون !

سألوه : لماذا ؟

قال : الراجل عمل بطله الفيلم .. نحلة !!

« المحظوظ » :

ثم أعلن المذيع خبر وفاة مسيو ليون فولتيرا ...
وهنا أصغى المقهى وجميع من فيه ! وراحوا يتتبعون باهتمام صوت
المذيع وهو يروى تفاصيل الخبر ، ومنها أن مسيو ليون فولتيرا كان أصيب
بهبوط في القلب منذ بضعة أسابيع ، وأقام حوله كبار الأطباء ...
وقد تحسنت صحته أول أمس شيئاً ما حتى إنه تمكن من متابعة وصف
سباق دربي أبسوم (إنجلترا) في الراديو .. ولكنه أصيب بأزمة في المساء
قضى على أثرها !

وما إن انتهى المذيع حتى انطلق رواد مقهى الشانزلزيه يتحدثون
عن « المرحوم » فولتيرا ... ولقبه « المحظوظ » ، فقد بدأ حياته « خادماً »
وقضى نحبه وهو من أصحاب مئات الملايين !

قامت الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤ ، وكان ليون فولتيرا يومئذ
يعمل خادماً في صالة أولمبيا يكنس وينظف المقاعد ! ! وفي المساء
يرتدى سترة خاصة ذات أزرار نحاسية ويقف بباب الصالة يبيع
البرنامج للمتفرجين !

وكان أصدقاءه الذين عاصروه في تلك الأيام منذ نحو ٣٥ عاماً
يضحكون ويمزحون معه - بعد أن أثري وأصبح من أصحاب الملايين -
ويذكرونه كيف كان ينحنى مثل رقم ٨ ، ويشكر كلما نفحه أحدهم
ببقشيش قدره صليديان .. أى أربعة مليات !

وكانت المليات الأربعة لها قيمة في تلك الأيام !

فرصة للحظ :

وحدث بعد قيام الحرب أن اقتربت الجيوش الألمانية من باريس ، واستعدت الحكومة الفرنسية للانتقال إلى مدينة بوردو .. وكان بين الأوامر التي أصدرتها الحكومة أمر بإغلاق جميع المسارح وصالات الموسيقى واللهو في باريس ، فقد كان الوقت جد خطير ، والعدو على الأبواب !

وأغلقت المسارح والصالات أبوابها .. ومن بينها صالة أولمبيا .. ثم اندحر الألمان في معركة المارن ، وارتدوا عن أبواب باريس وزال الخطر .

وبعد بضعة أشهر عادت الحكومة وألغت أمرها الأول ، وسمحت للمسارح وصالات الموسيقى باستئناف العمل .

ولكن معظم أصحاب المسارح والصالات تردد وأحجم خوفاً من أن يتعاقد هنا وهناك مع كواكب ومؤلفين وموسيقيين ، وينفق على إخراج رواية أو استعراض موسيقي مبالغ طائلة ثم تعود الحكومة وتصدر أمراً من جديد بالإغلاق !

ذلك لأن الجيوش الألمانية كانت لا تزال في أرض فرنسا .. والخطر لم يزل تماماً !

ولكن ليون فولتيرا .. أو فولتيرا المحظوظ ، انتهز الفرصة واقترض من بعض أصدقائه سبعة آلاف فرنك — وهي أقل من ٣٠٠ جنيه بعملة تلك الأيام .. وأقل من سبعة جنيهات الآن ! — وبهذه الآلاف السبعة استأجر صالة أولمبيا التي كان يعمل خادماً فيها .

وأخرج على مسرحها في عام ١٩١٦ استعراضاً موسيقياً جديداً في نوعه ..

ويروى عنه أنه جمع كواكب الصالة وراقصاتها وموسيقيتها وقال لهم يومئذ ما معناه : « ليس في مقدوري الآن أن أدفع لكم الأجور التي تناسب مقدراتكم ومكانتكم . ولكنني أعرض عليكم ربيعها .. مؤقتاً . وهذا خير لكم من البطالة . ولكن إذا نجح الاستعراض فياني أعدكم برفع مرتباتكم إلى ما كانت عليه .. بل أكثر ! »

ثم قال ما معناه - ومعدرة للصدیق محمد عبد الوهاب - قال إنه ينتظر من كل فرد بينهم أن يؤدي عمله على أحسن ما يمكن أن يؤديه .. «ويانعش سوا يا نموت سوا» !!

ونجح الاستعراض نجاحاً مذهلاً .. ومن يومها بدأ نجم ليون فولتيرا يلمع ساطعاً في سماء المسرح والموسيقى .

ومضى من نصر إلى نصر : فاشترى كازينو دي باري في عام ١٩٢٢ ، وتعاقد مع موريس شفالبيه ، ولم يكن يومئذ كوكباً كبيراً لامعاً كما هو الآن ... ونجح موريس شفالبيه !

ثم تعاقد فولتيرا مع « مستنجت » .. ونجحت مستنجت . ومن بعدها الشقيقات « دوللي » - وهذه أسماء لامعة في سماء المسرح الفرنسي .

ثم ابتاع ملهى « البروكيه » أي البغاء .. ثم افتتح « لونابارك » ومن بعده الليدو في الشانزلزيه ! ولم تقبل الحرب العالمية الثانية إلا وليون فولتيرا من أصحاب مئات الملايين !

وبعد انتهاء الحرب الأخيرة صنى فولتيرا كافة أعماله المسرحية . وباع أسهمه في المسارح ودور الرقص واللهو والغناء .. وأقبل على ناحية أخرى وهي جياذ السباق ، فأنشأ اصطبلًا يضم نخبة من الجياذ الأصيلة ، ولم يكن ليتردد في أن يدفع بضعة آلاف من الجنيهات ثمناً لمهر أو مهرة

أصيلة لا يزيد عمرها على عام وبضعة أشهر .
وفازت جياذ فولتيرا ، وربح أكثر من جائزة كبيرة من جوائز
السباق في باريس .
ولكن مناه أو مطمحه الأكبر كان الفوز في سباق « المدرني »
المشهور .

وفي هذا العام استعد للسباق المذكور بجوادين أصيلين من خيرة
جياذ السباق في فرنسا ، وهما « أمور ديك » و « فال دريك » ،
وقد فاز كل منهما بأكثر من جائزة كبيرة في سباقات باريس . وكان
الأمل كبيراً جداً في أن يفوز أولهما « أمور ديك » في سباق المدرني
ويحقق لصاحبه حلمه ومناه !

انفعال مخيف :

وقبل أن يحل أسبوع سباق أبسوم - ومن برنامجه سباق المدرني -
اضطر مسيو فولتيرا إلى ملازمة الفراش بسبب ضعف القلب !
وقام إلى جانبه كبار الأطباء ، وعلى رأسهم الطبيب المشهور الدكتور
موريس راسين . وكان أكبر ما يقلق بال الأطباء هو حالة فولتيرا
العصبية فقد كان لا يفتأ يردد اسمي جواذيه وسباق المدرني ... ويتحسر
لأن مرضه يحول دون سفره إلى إنجلترا ومشاهدة السباق بنفسه ، ومشاهدة
فوز جواده « أمور ديك » .

وأقبل يوم السباق وأعصاب فولتيرا تزداد سوءاً على سوء .
وعقد الأطباء اجتماعاً « كونصلتو » تشاوروا فيه هل يضعون إلى جانب
فراشه « راديو » يسمع منه وصف سباق المدرني مرحلة بعد مرحلة ..
ولكن ! . ألا يخشى عليه وقلبه من الضعف كما هو أن يصيبه الانفعال

بأزمة تقضى عليه ! وإذا منعه من الإصغاء إلى الراديو.. أفلا يمكن أن يقتله الشك وطول الحيرة والانتظار !

لقد كانت حقاً مشكلة ! وصرح الدكتور موريس راسين لمنهوي الصحف بأن هذه أول حالة من نوعها تقابله في حياته الطبية الطويلة !

وأخيراً سمحوا له بالراديو !

وأول أمس جرى سباق الدربي المشهور .. ونهض فولتيرا في فراشه تصف قاعد يصغي إلى المذيع .

وأقبلت الجياد على نهاية الشوط .

وجواده أمور دريك في الطليعة .

وعند شارة الانهاء .. التبس الأمر على حكام وقضاة السباق أي

الجيادين هو الفائز الأول ؟ !

أهو الجواد الفرنسي أمور دريك ؟ أو الجواد الإنجليزي تيمس ؟

لابد أن يفحصوا الصورة الفوتوغرافية التي تلتقط دائماً لحظة وصول

الجياد إلى شارة الانهاء ..

ومرت ثوان .. امتدت إلى دقائق . وفولتيرا قائم في فراشه يصغي

ويستظر ! ووجه الطبيب أشد اصفراراً - خوفاً ورحمة - من وجه المريض .

وأعلن المذيع أن الفائز الأول هو الجواد .. تيمس . وقد سبق الجواد

أمور دريك بما طوله أنف واحد .

وهو اصطلاح يعرفه رواد السباق .

وابتسم فولتيرا حسرة .. واسترخى في فراشه وهو يهمس : فولتيرا

المحظوظ ! ... إن كنت محظوظاً حقاً فليمد الله في عمري عاماً واحداً

حتى أشهد سباق الدربي العام القادم .. ويومئذ لا بد أن أفوز !

ولكنه قضى نعه بعد ذلك بساعات !



أحاديث من باريس

باريس - يونية ١٩٤٩ :

ذهبت أتناول طعام-العشاء في « مكسيم » ، ولم أكن أعرف أن المطعم العالمي الشهرة يحتفل بيوبيله الذهبي ، وإلا لما ذهبت دون أن أحجز مقدماً مائدة صغيرة أجلس إليها .

وأنقذ الموقف روبرت نائب رئيس الخدم . قال وهو يهز يدي مصافحاً : إن المرء يعود دائماً إلى باريس ...

قلت : أليس كذلك ! ... هل من مكان خال ؟

قال : وحدك ؟

قلت : نعم .. لسوء الحظ !

قال : بل لحسن الحظ وإلا لما أمكنني أن أدبر لك مقعدين .

وسار روبرت أمامي إلى مائدة صغيرة في أحد الأركان .

لم تكن خير مائدة ، ولكن لم يكن هناك خيار .

وتلفت حولى .. فقد كان مضى نحو عامين على آخر مرة تناولت فيها

الطعام في مكسيم !

إلى تلك المائدة التي في الصدر كان يجلس دائماً بطرس ملك يوغسلافيا

وزوجته الحسنة « هيلانة » التي لم يحتفل بتتوجيها ، ومن هنا اختلف

رأى ثقات البروتوكول هل ينادونها بلقب صاحبة الجلالة ... أو صاحبة

السمو الملكي ؟ !

ولقد هجر الملك الشاب وزوجته باريس ورحلا إلى الولايات

المتحدة واستوطنها منذ عام .

وقيل في بيان السبب إن رصيد الملك بطرس في بنوك فرنسا نقد ...
وإن الإعانة المالية التي كانت تمده بها الحكومة البريطانية قطعت .
فلم يجد بدا من التزوح إلى أمريكا حيث ترك له أبوه الملك إسكندر بضع
مئات من ألوف الدولارات في مصارفها .

والملوك ... حتى الملوك السابقون : يجب أن يعيشوا في باريس كملوك
وللألقاب تكاليفها .

أما في أمريكا الديمقراطية ، وحيث ينادون رئيس الدولة «مستر رئيس»
ويسمون كل ملك «مستر ملك» فمن الممكن أن يعيش الملك السابق
كأى فرد من أفراد الرعية !

وقيل كذلك .. إن الملك بطرس لم يرحل إلى أمريكا إلا يوم تخرجت
الحالة الدولية إلى حد الخطر ، وخيف أن تنشب الحرب فجأة ..

وهنا أقبل زبون من زبائن مطعم مكسيم .. البارون موريس ده
روتشيلد الذى عجزت ثورات وانقلابات العالم في ربع القرن الأخير
أن تنال منالا من ثروته . فلا الشيوعية ولا النازية في ألمانيا أولا والنمسا
ثانياً استطاعت أن تقتطع أى نصيب يذكر من ثروته ..

ورجال المال العالميون يسمونه الزئبق !

أقبل ومعه صاحبه ، وقد سار بين يديه مسيو ألبرت بنفسه ، ومسيو
ألبرت هو رئيس الخدم في مكسيم ! وهو مقام عظيم ! وهو لا يمشى
إلا بين يدي الملوك والأمراء .. ومن في حكم الملوك والأمراء .. وملوك
المال عند مسيو ألبرت أثبت مقاماً على الأقل - ولا أقول أعلى مقاماً -
من الملوك السابقين !

وكنت رأيت منذ عامين في مونت كارلو فتاة شقراء وتبارك الخالق
فيما خلق .. رأيتها في قاعات الكازينو وحول الموائد تلعب وتخسر في دقائق

معدودة مئات الألوف الفرنكات دون أن يهتز لها رمش .. وكنت أعجب من تكون ! ..

وتشاء المصادفة أن أدخل ذات مساء بعد ذلك بنحو شهر مطعم مكسيم مع الصديق سليمان نجيب .. وأن أقص عليه حكاية فتاة مونت كارلو ..

وبينما أنا في سرد الحكاية .. إذا بها تدخل !
وأشد ذراع سليمان وأهمس : « انظر ! .. ها هي ذى ! »
وكانت تستند إلى ذراع البارون موريس ده روتشيلد ! وفهمت لحظتها كيف كانت الحسناء تخسر على موائد اللعب مئات الألوف دون أن يرتجف لها رمش عين !!

ورأيت - منذ شهر واحد ، وفي قاعة الطعام ، وفي فندق ده باريس في مونت كارلو - البارون اليهودي نفسه ومعه فتاة سمراء ! أما الليلة في مطعم مكسيم فقد كانت صاحبتة .. شقراء !

وقلت للساقى : لماذا يغيرهن بهذه السرعة ؟
وأجاب الرجل وهو ينظر إلى ده روتشيلد وصاحبتة : إنه المال يا سيدى ... والشيخوخة ، فهما يورثان النهم !!
وموريس ده روتشيلد جاوز السبعين من عمره !!

* * *

واحتفل مطعم مكسيم بمرور خمسين عاماً على افتتاحه ، فقد أنشئ في عام ١٨٩٣ ، وكان ميعاد الاحتفال في عام ١٩٤٣ ، ولكن باريس كانت محتلة يومئذ بالألمان !

وفكر أصحاب المطعم في أن يقيموا الاحتفال في عام ١٩٤٦ ، ولكن مسيو ألبرت أشار عليهم بتأجيله « لأن العالم لم يسترد بعد مرح أيام ما قبل الحرب » !

ترى هل استرد العالم اليوم مسرح الأيام الحالية ؟
وأقيم الاحتفال ، ودام أربع ليالٍ سويًا ..

وأقبل بعض المحتفلين والمدعوين على المطعم في سيارات «من طراز
أعوام ١٨٩٠ وما بعدها ، وهي سيارات تشبه إلى حد كبير « الحنطور » ،
فمقعد القيادة وعجلة القيادة تعلوان عن الأرض نحو مترين !!

وأقبلت في الليلة الأولى من ليالى الاحتفال اثنتا عشرة من ممثلات
السينما الفرنسيات ، وقد ارتدين أزياء الربع الأخير من القرن الماضي . .
وظهرت إحداهن في ثياب « الأرملة المرحة » بطلّة الأوبريت
المشهورة بهذا الاسم .

ولهذا سبب وحكاية .! فمض نحو ٥٠ عاماً دخل مطعم مكسيم شاب
فنان . وبعد أن تناول طعام الغداء اعترف للجرسون بأنه مفلس وليس
في جيبه فرنك واحد !!

ونادى الخادم صاحب المطعم .. وأقبل صاحب المطعم على الشاب
المفلس يطمئنه ويطيب خاطره ويقول : « لا بأس .. سوف تدفع لى ثمن
الطعام فى يوم ما .. »

ثم نفح الشاب عشرة فرنكات !
وكان الشاب المفلس هو الموسيقار الذى ذاع صيته بعد ذلك ! ..
« فرانز ليهار » . وقد كتب ووضع موسيقى « الأرملة المرحة » وبين أغانيها
المشهورة أغنية : « أنا ذاهبة إلى مطعم مكسيم » !
وهكذا رد الفتى جميل صاحب المطعم !
وكانت هذه الأغنية سبباً فى شهرة مطعم مكسيم !

وكان بين زبائن مكسيم فى أثناء احتلال الألمان الماريشال هرمان

جورنج . فقد كان مكسيم مطعمه المحبوب في أثناء زيارته الكثيرة لباريس ..

ويروى خدام مكسيم الحكاية الآتية :

كان جورنج يقيم في باريس في أثناء اشتداد معركة بريطانيا ، وهي المعركة التي شنها سلاح الطيران الألماني على لندن وبقية المدن البريطانية لدمرها ، ويرغم بريطانيا على طلب الصلح والاستسلام (سبتمبر ١٩٤٠ - مايو ١٩٤١) .

وذات مساء دخل جورنج مطعم مكسيم يحف به ضباط أركان حرب ، وجلس إلى مائدته التي كانت تحجز له دائماً في أثناء وجوده في باريس . وأقبل « مصوراتي » من الذين تلقاهم في القاهرة يطوفون كل مساء بمطاعم وكباريات الفنادق الكبرى ، ويلتقطون في ضوء المغنيسيم ، صور كل جماعة صديقة تجلس معاً .. في مقابل مبلغ معلوم . والتمس المصوراتي الفرنسي من جورنج أن يأذن له بالتقاط صورته .. وأذن له جورنج !

وبعد ساعتين ... كانت الصورة - صورة جورنج وأركان حرب - ومعها محضر بالحديث الذي دار بينهم - كانت في لندن ! ذلك أن المصوراتي ، والسادة الذين كانوا يجلسون إلى المائدة المجاورة لمائدة جورنج ، كانوا جميعاً من رجال قلم المخابرات البريطانية !!

* * *

ومن زبائن مكسيم الآن رجل لم أكن رأيته من قبل ، واسمه الدكتور ستانسلاس لازوفرت . وكان له يد في مقتل الراهب راسبوتين ! الذي كان الشرارة التي أوقدت نار الثورة الروسية في عام ١٩١٧ . ومقتل الراهب الروسي تاريخ قديم ، طاف بالعالم ، وترجم إلى لغات العالم كافة ، وكان موضوع مسرحيات لا عداد لها على الشاشة

وعلى خشبة المسرح ، ومنها مسرحية راسبوتين لمؤلفها وممثلها الأول الأستاذ يوسف وهبي .

يقول الدكتور ستانسلاس إنه كان اتفق مع البرنس يوسوبوف على قتل راسبوتين بالسم ..

ودعا راسبوتين لتناول الطعام ، وكان الدكتور قد دس له كمية طيبة من السم في الحلوى .

يقول الراوى ، وهو نفس الدكتور ستانسلاس : وكان لراسبوتين خادم هندي يخلص لسيدة الراهب ويحبه حباً شديداً ، وكان هذا الخادم يشك دائماً في أن هناك محاولات لاغتيال سيده بالسم . ومن ثم عمد إلى إعطاء راسبوتين في كل يوم كمية تافهة ضئيلة من سم هندي .. لكي يخلق في جسمه المناعة ضد السموم ! وهكذا أكل راسبوتين الحلوى المسمومة .. ولم يبد عليه أى أثر أو أى عرض من أعراض التسمم ! وتبادلت النظرات مع شريكى البرنس يوسوبوف .. وأخرج يوسوبوف مسدسه ، وأطلقه على راسبوتين .

ويروى الدكتور بعد ذلك كيف حمل الاثنان الجثة في عربة من عربات الثلوج ، وألقياها في النهر ، وكيف أخفيا آثار عجلات العربة إلى آخره ..

* * *

ويقف الآن بباب مكسيم بواب جديد ، وهو يرتدى سترة لونها أحمر قان ، وأزرارها من النحاس الأصفر .. والبواب الحديد دون الأربعين من عمره ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ، وجيه الطلعة أو « فيه شيء ما » ..

وذاث يوم أقبلت سيدة إنجليزية في تاكسى ، وكانت السماء تمطر مطراً ثقيلاً . ونزلت السيدة من التاكسى وأمسك البواب الحديد بمظلته

الكبيرة فوق رأس السيدة يحمياها من المضر إلى أن دخلت المظعم ...
وبعد دقائق فوجئت السيدة الإنجليزية بالبواب يقف أمام مائدتها ويضم
قدميه وينحني أمامها ، ثم يقدم لها قرطها الماسي الذي كان قد سقط
من أذنها على مقعد التاكسي !

وطبعاً سرت السيدة سرواً كبيراً وأسرعت تفتح حقيبة يدها لتتناول
منها بقشيشاً طيباً تنفخ به البواب الأمين .. ولكن ! أجل ! لم يمد يده ..
بل ضم قدميه معاً ! وانحني أمامها وخرج تاركاً يد السيدة معلقة في
الهواء بالبقشيش !

وأقبل روبرت نائب رئيس الخدم يعتذر للسيدة الإنجليزية عن
سلوك « البواب الحديد » ويقول .. إنه « جنتلمان » ! .. والجنتلمان
لا يقبل « البقشيش » .

قالت السيدة : ... جنتلمان ؟
قال : نعم ، فقد كان إلى أشهر مضت ضابطاً برتبة كولونيل في
الجيش المجري . ثم هرب من بلاده ولجأ إلى باريس ..

* * *

ولاتزال باريس تتحدث عن زيارة البرنسيس مرغريت صغرى
كريمى الملك جورج السادس ، وكيف أنها لم تترك محلاً من محال الأزياء
إلا زارته واستعرضت أمامها « المانيكان » بأخر أزياء الربيع والصيف .
ثم .. لم تشتتر سوى ثوبين اثنين ، أحدهما مصنوع من القطن ،
والآخر من الكتان .

واعترضت الصحف عنها بسبب « ضيق ذات اليد » لأن سير
ستافورد كريس وزير مالية إنجلترا لم يسمح لها إلا بما يسمح به القانون
لأى إنجليزى عادى ، أى بخمسة وسبعين جنيهًا في الشهر ! ولعل هذا هو
السبب في أن الأميرة الظريفة نزلت في روما وفي باريس في ضيافة

السفارة البريطانية : كما أنها كانت تتناول وجبات الطعام على موائد أصدقائها من كبار البريطانيين ..

ولقد بذل كل مطعم مشهور وكل كاباريه في باريس جهده لكي تشرفه الأميرة مرغريت بزيارتها .. كما أن الصحف الباريسية أطلقت مندوبيها ومصورها .. وذهب بعضها إلى حد أنه حجز لمندوبيه ومصوريه الخصوصيين مائدة في كل مطعم وفي كل كاباريه من باب الاحتياط حتى إذا تصادف أن زارته الأميرة الإنجليزية : كانت المائدة معدة بخلوس مندوبيه لكي يصفوا فيها بعد للجريدة كيف كانت الأميرة تأكل ؟ وماذا أكلت ؟ وماذا قالت ؟ ويلتقطون لها صوراً من كافة الزوايا ! ولكن السفارة البريطانية كانت قد احتاطت بعد التجربة القاسية التي مرت بها البرنسيس في إيطاليا ، والضجة التي قامت حول صورها وهي بلباس الاستحمام ..

ولهذا سدت السفارة ورجالها آذانهم عن أسئلة رجال الصحافة . وضربوا ستاراً حديدياً حقاً حول تنقلات الأميرة مرغريت ! وكل ما عرف عن سهراتها هنا أنها زارت « صناديق الليل » في حي مونمارتر ، وأمضت السهرة في كاباريه « فلورانس » ، وهو محل نظيف و« شيك » ، ويعد ملتقى الطبقة الراقية في باريس .. وكان يصحبها بعض سيدات ورجال السفارة ، وخمسة من رجال البوليس « سكوتلاند يارد » .

ويقول صاحب الكاباريه إن حاشية الأميرة احتست خمس زجاجات من الشمبانيا ! ولكن الأميرة ورجال سكوتلاند يارد اكتفوا بتناول ماء فيشي !

تماماً مثل كاتب هذه السطور !

...

ومنذ يومين كتبت جريدة فرانس سوار تقول إن الجمهور لم يعد يحتشد عند أبواب القصور التي تعقد فيها المؤتمرات ، كما كان الحال من قبل ..

.. ولقد مر مندوب هذه الجريدة بعد ظهر اليوم بسرّاي الورود حيث يجتمع وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى ، فلم ير سوى مندوبين ومصوري الصحف ، ذلك لأن الجمهور الذي كان يحتشد فيما مضى ليحيي مندوبي الدول بالهتاف أو بالتصفيق قد سئم هذه المؤتمرات التي لا جدوى منها ، ولم يعد يعلق عليها أي رجاء ..

ومضت « فرانس سوار » تقول : « ولكن مئات كثيرة من أفراد الجمهور احتشدت منذ الساعة السابعة مساءً على امتداد شارع « كي ده لاتوريل » ليروا المدعوين لحفلة مطعم « لاتوردار جن » .. « ولاتوردار جن » معناها برج الفضة .

ولا تواردار جن مطعم مشهور لا يقل شهرة عن مطعم مكسيم ، وأساس « شهرته البط » !

ورئيس طهاة المطعم المذكور يمكنه أن يقدم لك البط مطهواً على اثني عشر شكلاً مختلفاً !

بط مطهى بالكراز .. و بط مشوى .. و بط مضغوط ومصنّى ! و بط محمر بالتفاح .. و بط بصلصة البرتقال .. و بط مطهى مع اللفت ؟ ... إلى آخره .. إلى آخره .

وتقول سجلات المطعم إنه افتتح أبوابه في عام ١٥٢٠ .. أي قد مضى عليه أكثر من أربعة قرون .

ومن تقاليد المطعم أنهم يقدمون للزبون الذي يطلب طبق البط - وفي المطعم طبعاً مختلف ألوان الطعام الأخرى من طيور ولحوم وأسماك -

يقدمون له بطاقة مرسوماً عليها مطبخ المطعم ورئيس الطهاة ومكتوباً عليها رقم البطة التي قدموا منها للزبون الصدر أو الورك !
 ذلك أن المطعم المذكور يُسجل يوماً بيوم - أو هكذا يزعم - عدد البط الذي يطهى ويقدم للزبائن ! ..
 واحتفل المطعم في الأسبوع الماضي - واحتفلت معه باريس -
 بوصوله إلى البطة رقم مائتي ألف ! ..
 ولكنها بطة سعيدة الحظ !
 لأن لجنة الاحتفال قررت أن لا تذبح ولا تطهى ! بل يطلق سراحها .. !

ومن نوافذ الطابق السادس - حيث يوجد المطعم المشهور وهو يطل من بعد على كنيسة نوتردام - أطلقت لجنة الاحتفال سراح البطة المائتي ألف ، بعد أن علقت بساقها ورقة كتبت عليها هذه الرسالة :
 « من يمسك بهذه البطة ، وفي أى بلد يكون ، فإن له الحق في أن يتناول مجاناً في مطعم لاتودارجن وجبة طعام مكونة من اثني عشر صنفاً » .
 ويقول مسيو تيراي صاحب المطعم إن البطة المذكورة لها جناحان قويان ، وهي قادرة على أن تعبر سماء بحر المانش إلى إنجلترا !

هذا وقد اتخذ البوليس الاحتياطات الكافية ليحول دون وقوف السادة عشاق الأكل وبأيديهم بنادق الصيد على أسطح الأبنية المجاورة ليصطادوا البطة لحظة إطلاق سراحها ويفوزوا بالاثني عشر لوناً من أصناف الطعام !

وفي اللحظة التي حلفت فيها البطة السعيدة الحظ فوق مياه نهر السين متجهة إلى الشمال أرسلت لجنة الاحتفال هذه الإشارة التليفونية - باسم البطة ! - إلى جميع مكاتب وكالات الأنباء العالمية في باريس وكذلك إلى راديو باريس ..

وهذا هو نص الرسالة والإشارة التليفونية :

يؤينه ٧ - منتصف الليل -

إلى العالم - أخبار مهمة - أطلقوا سراحى الآن وأنا أطيّر عبر
سماة باريس .

والإمضاء (البطة رقم ٢٠٠٠٠٠)

وقد ظلت باريس تتحدث أسبوعاً كاملاً عن احتفال مكسيم ،
وعن بطة مطعم لا تورد رجن وأكاد أسمع قراء يقولون .. هذا جنون !
نعم ! ولكننا فى باريس ! وقديماً قال الشاعر .. « ما لذة العيش
إلا للمجانين ! »

* * *

ويزور باريس الآن ليوبولد الثالث ملك بلجيكا ، وهو يزورها
متنكراً باسم ميسيو ديتري ليشترك فى مباراة الجولف التى تجرى الآن فى
ضاحية سان كلود .

ولم تحسن صحف فرنسا استقبال الملك ليوبولد ، ذلك لأن الفرنسيين
لا ينسون له كيف تخلى عن « حلفائه » فى مايو سنة ١٩٤٠ ، وعقد
صلحاً منفرداً مع هتلر ، واستسلم هو وجيشه للألمان !

وأذاع يومئذ بول رينو - رئيس وزارة فرنسا فى ذلك الوقت العصيب -
خطبة رمى فيها ملك البلجيكيين بالخيانة وخيانة العهود والمواثيق !

* * *

وذهبت أمس إلى مطعم الكوبول فى مونمارناس .
ألا ما أكبر الفرق بينه اليوم فى صيف ١٩٤٩ وبينه فى صيف
١٩٣٩ .

لم يبق أثر لذلك المرح وذلك « الجوى الدولى » الذى كان يشيع
فيه .. جو الصخب والضحك وغمز العين والحاجب بكافة اللغات !!

أين طلبة وطالبات دول البلطيق ودول البلقان ودول الشمال .. ؟
 أين الفتيات النورويجيات والبولانديات والمجريات .. أين ؟
 أين ؟

قيود السفر ، وقيود العملة ، والعملية الصعبة ، والعملية السهلة ،
 وحديث الحرب ، والضيق والفقر والقلق .. ثم الستار الحديدي !
 كلها عوامل قتلت حرية التنقل والسفر ، وقضت أو كادت على الحى
 اللاتينى ومونبارناس . فلم يعد الزائر يقابل فيهما سوى أبناء وبنات
 البلد من الفرنسيين .. أما الأجانب والأجنيات الذين كان الحيان
 الشهيران يغصان بهم قبل الحرب فلم يبق لهم أثر !

مدريد . . نار الله الموقدة

نصح لى أصدقائى المصريون فى باريس ألا أزور إسبانيا فى شهر يولية ، لأن الحر فيها لا يطاق وخصوصاً فى مدريد .

قلت : وهل تكون شراً من القاهرة ؟
قالوا : بكثير ! .. لأن القاهرة مهما اشتد حرها وقيظها بالنهار ، فإنها تعوضك خيراً فى المساء ، وليالى القاهرة يغازلها دائماً النسيم العليل ..
أما مدريد !

وهأنذا أكمل عبارتهم بعد أن عرفت مدريد .. « أما مدريد فنار الله الموقدة ! نهارها وليلها سواء ! بل لعل ليلها شر من نهارها بكثير ! »
ولكن كان لابد أن أزور إسبانيا وأطوف بمدنها الكبرى وخصوصاً « مدنها » العربية الأندلسية .. طليطلة — ويسمونها هنا « توليدو » وأشبيلية « سيفيل » وغرناطة وقرطبة أو « كوردوفا » .. وأن أرى بدائع الفن العربى — أو ما بقى منه ! أو بعبارة أدق « ما بقى القوم هنا منه ! » وعملية الهدم تجرى الآن فى آخر دار عربية كانت باقية فى مدريد .. وهم يهدمونها لكى يقيموا مكانها عمارة حديثة البناء !
كان لابد أن أزور إسبانيا بعد أن كنت هممت بزيارتها مرتين ، وعدلت عن زيارتها مرتين .

الأولى فى عام ١٩٣٧ ، وقد حال نشوب الحرب الأهلية دون زيارتى .

والثانية منذ عامين فى عام ١٩٤٧ ..

وهكذا غادرت باريس بقطار الصباح لكي أمضى في القطار ستاً وعشرين ساعة قبل أن أصل إلى مدريد !
والطائرة تقطع المسافة في أربع ساعات ، ولكنني -والأعمار بيد الله - لم أكن في يوم ما من أنصار السفر بالطائرة !
ومضى القطار - ويسمونه إكسبريس الجنوب - ماراً بأورليان وبلوا وبواتيه وأنجوليم وهي مدن وأسماء معالم شهيرة في تاريخ فرنسا ..

وفي هذه الرقعة بين بواتيه وتور وأنجوليم لقيت جيوش العرب الغازية أول هزيمة حاسمة منذ انطلقت من صحراء العرب مكتسحة ما أمامها عبر فلسطين ومصر وشمال أفريقيا وبوغاز جبل طارق وإسبانيا وجبال البرنيز إلى ضفاف البحر وند وما يليها ..

هنا قابلهم شارل مارتل الفرنسي ، ودحرهم في معركة من المعارك الحاسمة التي غيرت سير التاريخ ..

وارتد المد العربي إلى جزر ..

ولولا هذه المعركة الحاسمة لكانت جيوش العرب مضت في سيرها وأخضعت فرنسا كلها ورفعت أعلام الحلال على القرية الصغيرة يومئذ التي أصبحت اليوم باريس !!

ومن يدري فلربما كان العرب والأتراك التقوا بعد ذلك بنحو ستة قرون في وسط أوروبا ..

وأفقت من هذا الحلم عندما وصل القطار إلى مدينة بوردو . وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر .

وقام المسافر الجالس أمامي إلى « الترمومتر » المعلق عند مدخل عربة البولمان وعاد يقول : « ٣٦ » .

أى أن درجة الحرارة ٣٦ في الظل ! فماذا تكون في الشمس ، بل
ماذا تكون في مدريد ؟

ولكننى كنت انتقلت من حلم إلى حلم ...
وفي بلدة « هنداي » - وقد وصلنا إليها قبيل الساعة الثامنة مساء ،
أتممنا إجراءات الجمرك وفحص جوازات السفر

ثم مضى بنا القطار - وقد خرجنا من الأرض الفرنسية - إلى بلدة
« إيرون » وهي أول بلدة على الحدود الإسبانية ، وهنا غادرنا القطار
الذى حملنا من باريس ..

وتغير الحال ! وجوه مختلفة ولغة مختلفة ، وعادات مختلفة . وفي
« بوفيه » المحطة أمهات يحملن أطفالاً ، ويسحبن بأيديهن أطفالاً ،
ويحيط بهن أطفال .. تماماً كأنك في محطة طنطا أيام مولد السيد البدوي !
والذباب الذى كنا لانراه إلا نادراً في فرنسا .. أقبل علينا يحيط
ويحيط تحية المشتاق ! ولعله شم في رائحة الشرق الذى أنجبه ورباه ثم
أطلقه لعنة على العالمين !

وبين صراخ النسوة وعويل الأطفال وطين الذباب أحسست أننى
لست « غريباً » وأننى قد استبدلت أهلاً بأهل ! وأننى هنا في وسط
« بلديات » وأن هذا الذباب هو الشاهد الحى القائم على أن للشرق
والسلف الصالح في إسبانيا آثاراً لن يقوى على محوها الزمن !

والإهمال ... وعدم الاهتمام ... وشباك التذاكر الذى كان يجب
أن يفتح قبيل وصول القطار يفتح بعد ، لأن الموظف المختص لم يحضر
بعد !

ووقفنا طابوراً طويلاً أمام شباك التذاكر ... ولما طال بنا الوقوف ،
وقرع زجاج شباك التذاكر على غير طائل ، مضينا - ونحن أبناء

أمم مختلفة - نستنزل اللعنات على أم رأس أو رأس أم الموظف المذكور
باللغات الحية والميتة !

وأخيراً حضر الموظف ، ولما يبق على موعد قيام قطار مدريد سوى
بضع دقائق ! .. وبدلاً من أن يبدأ عمله فوراً مضى أولاً إلى زميل له
يقرض منه سيجارة ... ثم يشعلها على مهل وينفخ دخانها مرتين
وثلاث مرات ...

وأخيراً ... تحرك بنا قطار مدريد في تمام الساعة العاشرة مساء ،
وقد غربت الشمس منذ دقائق فقط تاركة وراءها عند الأفق لحة
من الدم تطفو فوقها عروض من الذهب المذاب .

وفتحت نافذة ديوان النوم ، ولكن أين هو الهواء !
وعجبت كيف كان العرب يصومون شهر رمضان في إسبانيا إذا
حل الشهر المبارك في الصيف ؟

إن الشمس لا تغرب هنا في شهر يولية إلا بعد منتصف الساعة
العاشرة مساء ، فكيف يكون الصيام ! .. ومتى يكون الإفطار ؟
ومتى يكون تناول طعام السحور ؟ !

وقلت وأنا أتقلب في فراشي ، والقطار يهدر في طريقه ، ويتسلق
رويداً رويداً جبال البرينيز ، وقد بدأت أحس لذة نسيم الليل -
بعد أن ارتفعنا عن سطح البحر نحو ألف متر أو تزيد - قلت .. « لعل
العرب زهدوا في إسبانيا وتركوا الأندلس هرباً من صيام شهر رمضان في
هذا البلد الذي لا تغرب شمسُه إلا بعد ١٨ ساعة من الشروق » !

وأقبلنا على مدريد في منتصف الساعة الحادية عشرة من صباح
اليوم التالي

ومدريد عاصمة إسبانيا أشبه بالمرأة التي لا هي جميلة ولا هي

دميمة ! لا خفيفة الدم ... ولا ثقيلة الدم ! مدينة عادية تماماً لا طابع لها ولا لون .

لباريس مثلاً طابع خاص ، ولروما طابع خاص ، وللندن طابع خاص .. ولكل عاصمة تقريباً من عواصم أوروبا من أنقرة وإستانبول إلى فيينا وبودابست طابع خاص ... إلا مدريد !

في بعض أحيائها القديمة يخيل إليك أنك في روما ! .. وفي بعض شوارعها التجارية يخيل إليك أنك في باريس !

وإذا جست خلال حوارها - وما أقدرها - ظننت أنك في حي « الإيست إند » في لندن !

ولكن لمدير ميزة واحدة في هذه الأيام ، وهي أنها قطعاً ، وبكل تأكيد ، أرخص عاصمة في أوروبا ، ونفقات المعيشة فيها أقل من نصف مثلها في باريس ، بل أقل من مثلها في القاهرة بكثير .. (كان هذا في عام ١٩٤٩) .

والغرفة بحمام التي تدفع أجراً لها في باريس نحو ثلاثة جنيهات في اليوم ، لا تكلفك هنا أكثر من ١٢٠ قرشاً ! ووجبة الطعام في مطاعم الدرجة الأولى في مدريد لا تكلفك أكثر من ٦٠ قرشاً ... في حين أنها تكلف في باريس نحو جنيهين !

وقال لي طالب مصري من أعضاء بعثة الفنون الجميلة هنا إن في مدريد فنادق طيبة يستطيع السائح أن يجد فيها طعاماً وشراباً وفراشاً بنحو ٧٠ قرشاً في اليوم الواحد .

والسلع - وخصوصاً المصنوعات الجلدية - أرخص من التراب . والحذاء الجيد المتقن الصنع يعرض في واجهات المحال التجارية بسعر يروح بين ٦٠ و ١٢٠ بيزيتا ! والبيزيتا تساوي قرشاً واحداً ! .. أي أن أسعار الأحذية في مدريد مثل أسعارها أول أقل في دمياط !

والذى أعجبني هنا بوجه خاص هو قناعة الإسبانين ورضاؤهم بالقليل ... من العطاء أو « البقشيش » .

تناولت الطعام فى أول يوم فى مطعم الفندق الذى نزلت فيه ... ودفعت الحساب ! وناولت « الجرسون » على سبيل العطاء ورقتين مائتين حسبت أن كلا منهما من فئة خمس بيزيتات . أى أن جملتهما عشرة قروش

وانحنى الجرسون مثل رقم ٨ يشكرنى شكراً جزيلاً ! ولكننى اكتشفت بعدها أننى لم أعطه سوى قرشين اثنين ! وأن الورتين كانتا من فئة بيزيتا واحدة ! وحفظت الدرس ! أما فى باريس فقد تمنح « الجرسون » مائة وخمسين فرنكاً ، أى نحو ١٥ قرشاً ، فيضعها فى جيبه ! .. وقد ينسى أن يشكرك ! وإن شكرك فبكلمة واحدة تخرج وهى تعرج من بين شفتيه ! والمتسولون هنا كثيرون ، ولكنهم أقل « فنناً » بكثير من زملائهم فى إيطاليا . وهم يستحلفونك بالقديسين والقديسات .. ولكن ذخيرتهم من أسماء أولياء الله أقل بكثير من ذخيرة إخوانهم الإيطاليين . أما فى الإلحاح فإن الفريقين سواء . ولكن شحاذى مدريد يقنعون بما قيمته مليم ! ويدعون الله أن يدخلك جناته ، آمين !

أما إذا جسرت أن تجود على شحاذ فى باريس بأقل من عشرة فرنكات (أى قرش صاغ) فإنه يدعو لك بالبحيم ومع سرعة التنفيذ !

* * *

والقوم هنا راضون بحالهم وقانعون .. والحياة كما قلت سهلة رخيصة ، وأعمال التعمير والبناء والتجديد وإصلاح ما خربته الحرب الأهلية قائمة فى كل مكان . وهم يشيدون الآن على حدود المدينة الشمالية بناء ضخماً على مساحة

نحو عشرة فدادين لكى يجمعوا فيه كافة وزارات الحكومة . . . إلا وزارة الطيران - ولا أفهم السبب - فإنهم يشيدون لها بناء خاصاً بالقرب من المدينة الجامعية . . .

وفى مدريد عمارة كبيرة شيدها الحكومة لرجال الفنون على اختلاف ألوانها ، فهى تضم بين طبقاتها السبع أندية للموسيقين والمطربين والراقصين والرسامين ، ولرجال الآداب والقلم .. إلخ .. لكل طائفة ناد خاص ، أو طابق خاص !

وبعد .. فإن كان حكم فرانكو هو الفاشية كما يقال .. وكان رخص المعيشة ورضاء المحكومين وقناعتهم من ثمرات هذا الحكم الفاشيستي فمرحبا بالفاشية وفى أية صورة تكون !

* * *

والأمر الوحيد الذى ينغص الحياة على أهل مدريد فى هذه الأيام هو قلة الماء ! ماء الشرب وماء الاستحمام ! والسبب فى ذلك أن مدريد تعتمد فى حاجتها من المياه على الأمطار والثلوج . ومياه الأمطار تجمع فى خزانات .. ولكن السماء شحت بأمطارها فى الموسم الماضى ، ولم يسقط من الثلوج إلا أقل القليل .

واضطرت الحكومة أن تخضع توزيع الماء لما يشبه نظام البطاقات ! ومن هذا فإن المياه لا تجرى فى « المواسير » إلا لمدة نصف ساعة فقط فى الصباح .. وعلى السكان أن يخزنوا حاجتهم فى الأواني والمواعين لطول النهار !

ولما كانت الكهرباء تعتمد فى توليدها على مساعدة المياه ، فإن النور الكهربائى قد أخضع كذلك للقيود نفسها .. ومن هنا يقطع التيار خلال ساعات معينة فى كل يوم !
ولكن الحكومة استثنت الفنادق الكبرى من حكم هذه القيود

رحمة أو حرصاً على راحة ومرضاة السائحين . فالماء يجري طول اليوم
في الفنادق ، وكذلك التيار الكهربائي ..

ولقد دهشت في أول الأمر — وقبل أن أعرف السبب — دهشت
لكثرة الذين توددوا إلى من أبناء مدريد في ردهة الفندق . وحرصوا على
التعرف إلى ..

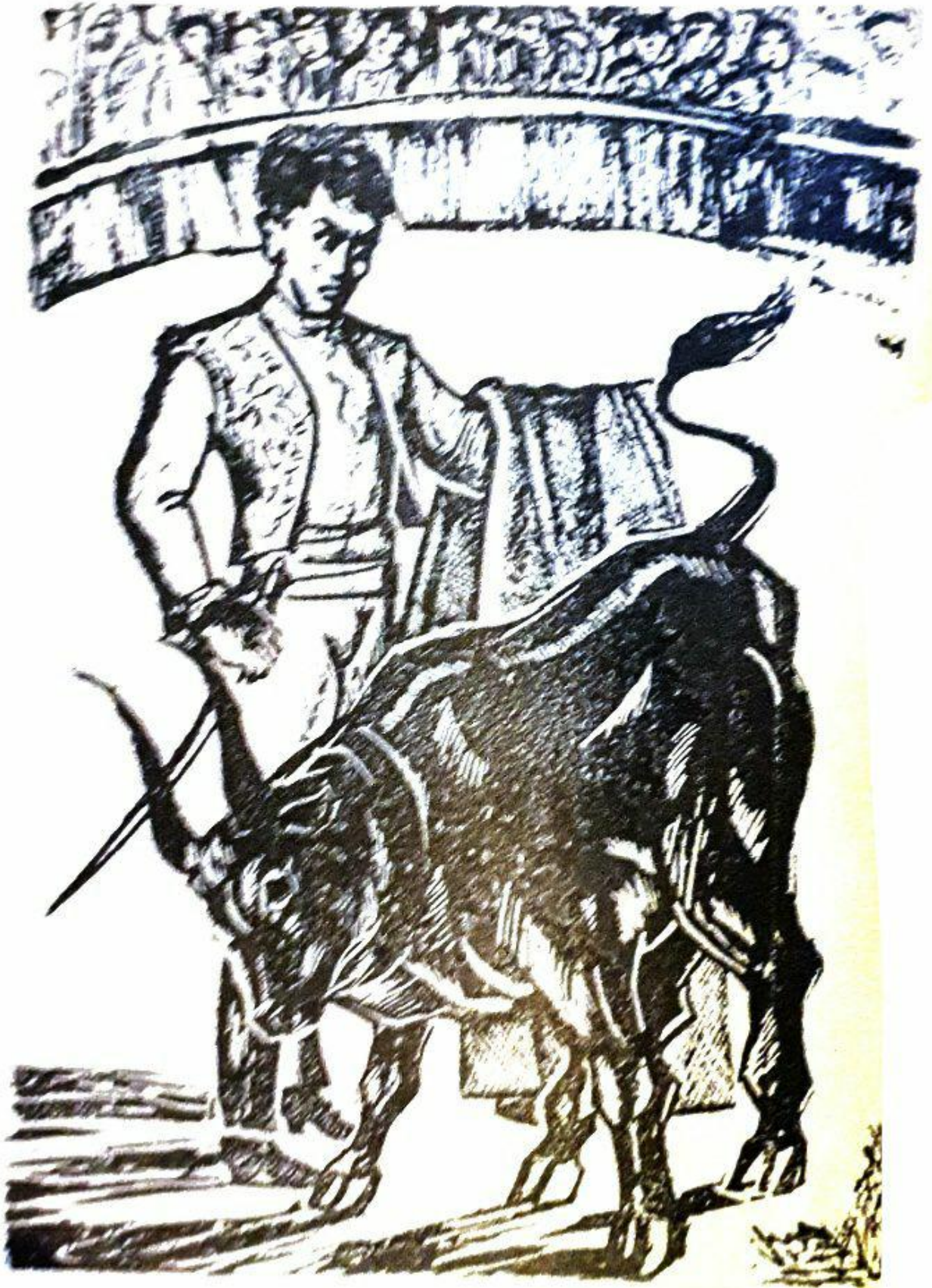
والسبب بسيط ! .. لكي أسمح لهم بالتمتع « بدش بارد » في الحمام
الخاص الملحق بغرفتي في الفندق !

ومدريد — مثل القاهرة وباريس — مملوءة بالمقاهي العمومية ، والنجوم هنا
يمضون شطراً كبيراً من الليل في هذه المقاهي . وقد تسمعهم يتبرمون
ويسخطون بسبب أزمة الماء .. ويسبون ويلعنون — واللغة الإسبانية من
أغنى لغات الأرض في ألفاظ السباب — وهم يسبون كل شيء .. تماماً
كما هو الحال في مصر !! ولكن لا شيء هناك في الحقيقة وراء هذا
السباب ! إن هو إلا ضيق الصدور .. وشدة الحر .. وبخار في الهواء !

وأفقت صباح اليوم — وأنا ما أزال بين النعاس واليقظة — على أصوات
خيل إلى معها أنني في القاهرة لا في مدريد !

أصوات الباعة التي تصاعدت إلى من ميدان « الكورتيز » مجلس
النواب — الذي تطل عليه شرفة غرفتي هي أصوات باعة القاهرة نفسها ..
نفس الأصوات ونفس النغمات ونفس المد والتמיד والترنيم ..
التي نسمعها في مصر تنادي على الحيار القشة اللي زى اللوبيا .. وبيض
الجمام يا عنب !

والخمسة القرون التي انقضت منذ تقلص حكم العرب عن هذه
البلاد لم تمنح عنها الطابع العربي .. والسبعة القرون التي ساد فيها حكم



مصارعة الثيران في إيران

العرب شبه جزيرة أيبيريا قد خلفت وراءها طابعاً وطباعاً لن تقوى على
محوها القرون !

الغناء ، الرقص ، الموسيقى ، هندسة البناء ، الزخرف ، العادات
بل اللغة ... كلها تحمل الطابع العربي الأصيل !

وهذه السمراء الفاتنة ، ذات العيون اللامعة الخاطفة .. ما أحرأها
أن تكون من فتيات حى المنيرة أو حى رأس التين !

حتى الغزل و« البصبصة » وأساليب التقرب إلى حبيبة القلب ...
وطريقة إبداء الإعجاب عن طريق السب وحرق دين الملة كما يفعل
إخواننا فى لبنان هى نفسها فى مدريد !

وإذا كانت « البصبصة » فى ميدان العتبة الخضراء وشارع فؤاد
تسمح بأن تقول : « يا محمل ، يا لحم غالى ومتكلف ! ... أو يلعن دين
خفة دمك ! .. » وفى لبنان يقولون : « يقصف لى عمرك ! ما أخف دمائك ! »
فهنا إذا أراد الفتى إبداء إعجابه بالغزال المار فى الطريق يقول : « كومينا »
وإذا رأت الفتاة أن تبادله إعجاباً بإعجاب ، وأن ترد عليه تحيته بمثلها ..
ابتسمت له وهمست : « كومينو » !

وكومينا ... معناها قردة ! وكومينو ... قرد ! ..
نحن نقول فى القاهرة يا قطة ! وهم فى مدريد يقولون يا قردة !

* * *

مصارعة الثيران :

مصارعة الثيران فى إسبانيا هى أشبه بالأهرام وأبى الدول ومقبرة توت
عنخ آمون ودور الآثار فى مصر ، أى أنها الشئ الذى يجذب السائحين ،
وأول ما يحرص السائح على مشاهدته فى إسبانيا .

وتحرص مصلحة السياحة في مدريد على الإعلان بكافة وسائل الدعاية عن حفلات مصارعة الثيران وأسماء أبطال المصارعين ، وهي تنشر صورهم في صحف أمريكا وأوروبا ، وتحيطهم بهالة من الإعجاب ! .. وتوحي بنشر مختلف القصص والنوادر عنهم تماماً كما تفعل إدارات الدعاية في شركات هوليوود عن كبار كواكب السينما بل لعل مصلحة السياحة في إسبانيا لا تعنى بالدعاية لمتاحف الفن الكثيرة وحفلات الرقص الإسباني أو المواكب والمواسم الدينية في أشبيلية أو مراقص الباسك وحفلاتهم كما تعنى بالدعاية لحفلات مصارعة الثيران !

وقد يدخل وزير إسباني إلى مطعم عام فلا يلتفت إليه أحد ! ولكن إذا دخل أحد مشاهير مصارعي الثيران - ويسمونه «طوريرو» لا «طوربادور» كما يكتبها خطأ معظم الكتاب - إذا دخل مطعماً ما أو حفلة ما تلفت إليه الأنظار وأسرت إليه حسان الحفلة ليعظيّن منه بكلمة أو ابتسامة !

هم إذن هؤلاء «الطوريروس» جمع طوريرو - أشبه بكبار كواكب السينما ، بل هم أعظم مقاماً في إسبانيا إذا قيس المقام بوفرة الأرباح .. وقد يدهش القارئ إذا عرف أن الطوريرو العادي ، أي الذي لم يبلغ بعد مرتبة الأبطال ، لا يقل دخله في العام الواحد عن خمسة ملايين بيزيتا أي خمسين ألف جنيه !

* * *

مواسم المصارعة :

ولمصارعة الثيران في إسبانيا مواسم مختلفة في المدن المختلفة .. تماماً مثل مواسم الأوبرا أو التمثيل ! فكما أن الفرقة القومية مثلاً في مصر تمثل شتاء

في القاهرة وصيفاً في الإسكندرية ، فإن حفلات مصارعة الثيران تقام في مدريد مثلاً بين مايو وسبتمبر ، وفي أشبيلية بين أواخر أبريل وأوائل مايو ، وفي غرناطة في شهر يونية ، وفي بامبلونا في يولية .. وأما في سان سباستيان – المصيف الرسمي للحكومة الإسبانية – فإنها تقام ابتداء من منتصف شهر أغسطس .

وأشهر مصارعي الثيران الآن هم لويس ميخل دومنجوين وباكينو يونيوز وباريتا وروفيرو . وهذا الأخير يبلغ دخله في العام نحو مائتي ألف جنيه . وهو يعمل تسعة أشهر فقط ، ويستريح بقية العام . ولا يحسب أحد أنه يعمل كل يوم طيلة هذه الأشهر التسعة ، ذلك لأن حفلات مصارعة الثيران تقام ثلاث مرات فقط في الأسبوع . أى أنه يربح المائتي ألف جنيه عن عمله في ١١٢ حفلة . ولا تزيد الحفلة على ساعتين اثنتين ! وإذا مشيت في الحساب إلى النهاية وجدت أنه يربح نحو ألف جنيه في الساعة الواحدة !

ولكن مصارع الثيران يدخل حلبة المصارعة وهو يحمل حياته على كفه! .. خطر الموت – وأى موت – ماثل في كل لحظة !
عثة قدم .. أو أقل هفوة في نقل القدم .. أو تقديم ساق قبل أخرى أو في لفطة الرأس .. أو في قياس المسافة بين الثور الهائج وبينه .. أقل هفوة .. وإذا بالثور الهائج فوقه ينطحه بقرنيه ... ويبقر بطنه ! .. أو ينفذ بقرنيه من الظهر إلى الصدر .. أو يغرز أحدهما في عنق الطوريرو !

ومن هنا كان أول درس يتلقاه مصارع الثور هو « أن أول غلطة لك هي آخر غلطة لك لأنك لن تعيش بعدها لكي ترتكب غلطة أخرى » !

أشهر مصارع :

ولا يزال القوم هنا يتحدثون عن مانوليتي أشهر مصارع ثيران عرفته إسبانيا في العشرين عاماً الأخيرة ، وكيف لقي مصرعه في لحظة النصر !
كان مانوليتي يربح في العام الواحد أربعين مليون بيزيتا ، أى أربعمائة ألف جنيهه بسعر القطع الحالى .. ونحو سبعمائة ألف جنيهه بسعر القطع في العام الماضى يوم لقي مصرعه تحت قدمى ثور !

وكان مانوليتي لا يزال فى الثانية والثلاثين من عمره .. يوم مات !
نزل مانوليتي إلى حلبة المصارعة - وهى مستديرة ، ومساحتها نحو فدان - نزل وهتاف عشرات آلاف المعجبين يشق الفضاء .
وتغلب على الثور الأول ...

ثم الثور الثانى ...
فلما كان الثور الثالث ... وقد وصل مانوليتي إلى المرحلة الأخيرة ورفع سيفه القصير المستقيم لكى يغرزه بضربة واحدة فى عنق الثور .. ترددت يده .. ربما جزءاً من ثانية !

ولعله التعب ! أو لعلها الشمس المتوهجة .. أو لعله صياح حناجر خمسين ألف متفرج وهتاف إعجابهم الذى يصم .. ولكن يد مانوليتي ترددت جزءاً من ثانية .. وهذا التردد الذى لم يدم أكثر من لمح البصر كان كافياً ! فبينما كانت يده تهوى بالسيف تغرزه فى عنق الثور .. كان الثور يغرز قرنيه فى جنبه !

وسقط الاثنان معاً ! .. سقط الثور ومصارعه !

وحملوا مانوليتي إلى المستشفى ..
وفتح عينيه فى حشرة الموت وسألهم ...

لم يسألهم عن زوجته ولا عن طفليه .. ولا عن أمه وأبيه . بل سألهم :
ولكن .. هل مات الثور؟

قالوا : نعم .. مات !
وارتسمت ابتسامة الرضا فوق شفתי الطوريرو البطل ، ولفظ نفسه
الأخير !

وبكته إسبانيا من أقصاها إلى أقصاها .. ولا تزال صورته الفوتغرافية
تباع حتى اليوم وتعلق في صدر المطاعم والمقاهي والأندية !
والواقع أنه يندر أن يموت أحد من مصارعي الثيران حتف أنفه ،
فمعظمهم يلقي منيته مبقور البطن أو مهشم الأضلاع ! والسعيد الحظ
بينهم من يترك العمل بعد أن يجمع ثروة طائلة ويفقد ذراعاً أو ساقاً !

تكافؤ الفرص :

ومع جسامة الخطر الذي يواجه مصارع الثور أعتقد أن مصارعة
الثيران هي نزال أو صراع ليس فيه مروءة ولا شهامة — إن جاز هذا التعبير —
إذ ليس فيه تكافؤ للفرص .

الخطر على الطوريرو جسيم ، نعم . ولكنه قد ينجو ..
أما الثور فإنه يدخل الحلبة وهو مقضى عليه بالموت !
ليس هناك إذن تكافؤ في الفرصة أمام « الطرفين » ..
باب النجاة مفتوح دائماً أمام المصارع ..
أما الثور فليس أمامه سوى باب الموت .

وقد يتغلب الثور على مصارعيه من الطوريرو إلى الميتادور والبيكادور ..
وقد يقضى عليهم واحداً بعد الآخر .. ولكنه مع ذلك لن ينجو . لأن

آخرين يحاولون في الحال مكانهم .. ولا يزالون بالثور حتى يتمضوا عليه !
وهو بعد هذا وذاك مشهد فظيع يحبس الأنفاس ويحطم الأعصاب !
ولقد عجزت أنا عن مشاهدة الحفلة حتي النهاية .. وانصرفت بعد نصف
ساعة فقط بعد أن سجلت فيلماً سينمائياً ، وغادرت الحفلة والثور الثالث
مشخن بالجراح والدماء تسيل من ظهره وعنقه على جلده الأسود اللامع ..
وفي ظهره ست حراب مغروزة .. والطوريرو - وكان روفيرا - يحاوره
قبل أن يقضى عليه نهائياً ويغرز في عنقه سيفه المذنب القصير !

رياضة عربية :

كان المعتقد إلى أوائل القرن الماضي أن مصارعة الثيران « رياضة »
إسبانية الأصل ، إلى أن تبين أنها عربية الأصل ! .. وأن العرب هم
الذين بدءوها ولقنوها للإسبانيين ..

وفي متحف البرادو في مدريد قاعة بالدور الثاني خصصت لبعض
الرسوم والصور التي رسمها الرسام الأشهر جويا في « العهد الأسود »
وبعضهم يسمونه « الفن الأسود » . ويعد جويا من أشهر وأكبر رسامي
العالم ، وبعضهم يغالى ويضعه في مرتبة واحدة مع ميكائيل أنجلو
ورفايل وتيسيان ..

وعلى كل حال فإن جويا يعد بين طليعة الرسامين الإسبان ..
وقد اشتهر ونبه ذكره في أواخر القرن الثامن عشر ، وتوفي في الثالث
الأول من القرن التاسع عشر .

وجاء يوم سئم فيه جويا رسم صور الملوك والأمراء والعظماء .. وزهد
في حياة النعيم ، فانصرف عن جو المدنية والترف إلى الشعب ، وراح
يرسم صوراً مستمدة من حياة الشعب .

ولكنها كانت صوراً أوحى بها خيال مريض ! .. بل إن بعضهم يقول إن جويبا كان أصيب بلوثة أو بما يشبه الجنون ! .. كما أن هذه الصور جميعها رسمت بالقلم أو بالفحم ! لا بالزيت والألوان .

ومن هنا كانت التسمية « العهد الأسود » إشارة إلى جنون جويبا أو « الفن الأسود » إشارة إلى قلم الفحم الذي رسمت به الصور .. وبين هذه الصور رسم لا يزيد طوله على ٣٠ سنتيمتراً وارتفاعه على ٢٠ سنتيمتراً وهو يمثل حلبة مصارعه الثيران ... وقد وقف فيها المصارعان - الطوريرو والميتادور - وكلاهما عربي ، وكلاهما كان يرتدى القفطان العربي وعلى رأسه العمامة الكبيرة !

وإني لأعجب - ومن مقتضيات فن مصارعة الثيران الحفة المتناهية التي ما بعدها خفة ، والرشاقة في الحركة ، والثوب الملتصق بالجسد والساقين حتى لا تعوق ذيوله وحواشيه حركة المصارع - إني لأعجب كيف كان الطوريرو العربي بعمامته وقفطانه ذي الذيل يستطيع محاورة الثور ومصاولته ومداورته !

حفلات المصارعة :

ذهبت إلى إحدى حفلات مصارعة الثيران وأنا أعلم أنني سأشهد شيئاً تنقزز منه النفوس .. أو نفسي أنا على الأقل ، ولكنني كنت أريد أن أسجل فيلماً سينمائياً لمصارعة الثيران وأضمه إلى مجموعتي من الأفلام ! وكان الحر شديداً - بل حر القاهرة في يولية وأغسطس هو النسيم العليل بالنسبة لحر مدريد - ومع ذلك وبالرغم من شدة الحر امتلأت مدرجات مبنى المصارعة ، ويسمونه (سراى الثيران Plaxa de Toros) إلى آخرها ، ولا يقل عدد المتفرجين عن خمسين ألفاً ! .. وأجرة الدخول متفاوت بين عشر بيزات ومائتي بيزيتا بخلاف الضريبة وهي ١٠٪ .

والبيزيتا تساوى الآن قرشاً صاغاً ، أى أن إيراد الشباك من الحفلة الواحدة يبلغ أكثر من ستين ألف جنيه !
وليس هناك سقف للمبنى ، أى أن المدرجات والحلبة مكشوفة تماماً ،
ومن هنا تختلف أسعار الأماكن حسب وقوعها فى الظل أو فى الشمس ..
وقربها أو بعدها عن الحلبة .
وبدأت الحفلة فى الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والأربعين بنفخ
الأبواق .. نفخاً .. ذا نغم خاص مثير !

الموكب :

ودخل من باب واسع فى صدر الحلبة موكب الطوريرو ، يتقدمه
الطوريرو نفسه ، ومن خلفه المتادورس وعددهم ستة ، ومن خلف
هؤلاء البيكادوس على ظهور الجياد وعددهم أربعة ..
وفى مؤخرة الموكب البغال والقائمون عليها ومهمتهم جر الثور الصريع
من قدميه إلى خارج الحلبة .
وطاف الموكب بدائرة الحلبة ، والجمهور - أى عشرات الألوف
تصفق وتهتف لروفيرو وتقذفه بالزهور ..
ثم انسحب الجميع وعادوا من حيث دخلوا .
وبقى فى الحلبة الطوريرو والمتادورس ، وقد توزع هؤلاء فى جوانب
الحلبة ...

ونفخت الأبواق مرة ثانية ..

وفجأة .. فتح باب فى جانب من الحلبة .. وانفلت منه ثور !
وجال الثور بنظره فى جوانب الحلبة ، ثم وقف كالمأخوذ !! ..
ولعله من وهج الشمس ، أو من هذه الجموع المحتشدة ، أو من صياح
الآلاف .

وظل الثور لحظات واقفاً يجمل نظره .. إلى أن تقدم منه المتادور -
أحد المتادروس الستة - ولوح أمامه بمحرمته الحمراء - والمحرمة هنا
ترجمة للكلمة الإسبانية (Cape) - واللون الأحمر كما هو معروف
يهيئ الثور ويستفزه ، ولهذا السبب تجد جميع جدران حلبة المصارعة قد
طلبت باللون الأحمر ..

وما إن تقدم المتادور ولوح بالمحرمة الحمراء ، حتى ثار الثور وزجر
ثم اندفع نحو المتادور ، ورأسه منحني إلى أسفل يريد أن ينطح المتادور ..
ولكن الرجل بقي في مكانه لا يتحرك حتى أصبح الثور على قيد خطوتين
منه أو أقل ثم .. وهنا فن المصارعة ورشاقة المصارع ..

نقل الميتادور قدماً وراء قدم واستدار نصف خطوة واحدة ..
فإذا به قد تنحى عن طريق الثور الهائج .. وإذا بالثور ينطح بقرنيه
الهواء !

واندفع الثور في طريقه ثم عاد ..
واندفع إليه متادور آخر .. ثم ثالث ورابع ... وكل منهم يلوح
بالمحرمة الحمراء أمام عيني الثور ... وكل منهم يستفز الثور ثم يفلت
منه برشاقة ..

ودامت هذه العملية نحو خمس دقائق ، وكان هياج الثور قد بلغ
غايته !

البيكادور :

وهنا نفخت الأبواق مرة أخرى ودخل البيكادور على ظهور الجياد ..
وقد أمسك كل منهم في إحدى يديه برمحاً طويلاً ! وفي اليد الأخرى
أمسك بعنان الجواد ..

أما الحياد فقد عصبت عيونها حتى لا ترى الثور . وأسدلت على جانبيها
عروض من الجلد السميك تحميها من قرون الثور حين يلتحم معها ...
ولكن يحدث أحياناً أن تكون نطحة الثور من العنف والقوة بحيث تقلب
الجواد وفارسه أرضاً ، كما حدث مرتين في هذه الحفلة !
وتقدم متادور بمحرمته يحاور الثور حتى استدرجه نحو البيكادور ،
ورفع البيكادور رمحه وغرز سنه في ظهر الثور ، ثم سحب الرمح
وهو يقطر دماً !

وإذا الثور يهجم على البيكادور . وتدافع نحوه المتادورس بمحارمهم
الحمراء يستدرجونه نحوهم بعيداً عن البيكادور ..
وتكررت هذه العملية مرة أخرى ..
ثم نفخت الأبواق ..
وكان الثور هنا في أشد حالات الهياج ... وقد بدأ يهن قليلاً ...
وتقل سرعته في الجرى .

ودخل الحلبة متادور ، وقد تخلى عن محرمته ، وأمسك بكلتا يديه
حربتين قصيرتين لا يزيد طول كل منهما على ٧٠ سنتيمتراً .. وحاور
الثور وداوره ، ثم بحركة رشيقة وثب في الهواء ، وبنفس الحركة غرز
الحربتين في لحظة واحدة في عنق الثور وتركهما مغروزتين !
وهو عمل شديد الخطورة يتطلب خفة قدم وثبات نظر ويداً قوية
كالحديد !

ودار الثور حول نفسه وهو يخور ويزأر .. ألماً ! ويحاول أن ينفض
عن عنقه هاتين الحربتين المغروزتين ! .. هذا والدم يسيل على جوانبه
بغزارة ..
ودخل متادور ثانياً .. وغرز حربتين أخريين ...

ثم ثالث .. حتى بلغ عدد الحراب المغروزة ستاً !
ونفخ في الأبواق ...

المرحلة الشاقة :

وتقدم الطوريرو من الثور .. وهذه المرحلة هي أشق وأخطر مرحلة
في مصارعة الثور ..

تقدم وقد أرخى المحرمة الحمراء على طول ذراعه اليسرى .. يستفز
بها الثور ويحاوِّره في حين أمسك بيده اليمنى سيفه المستقيم القصير !
ونحلا الميدان إلا من الطوريرو والثور .

والطوريرو البطل حقاً معبود الجماهير حقاً والذي يستحق الإعجاب
حقاً .. هو الذي يطيل في محاورة الثور - أو في عذاب الثور وهو
ثابت في مكانه .. تستطيع أن ترسم حوله دائرة محورها متر واحد لا يتعداها!
يقلب محرمته أمام الثور فيندفع الثور .. ولكنه ينقل قدماً وراء قدم
ويدور حول نفسه ... فإذا به وراء الثور ... أو إلى جانب الثور ...
ولكنه ليس أمام قرني الثور ..

هذا والدماء تسيل من جروح الثور الكثيرة ..
ويسقط الثور ضعفاً ... ثم ينهض وهو أشد هياجاً من قبل !
إنها الحياة ! .. والثور يحس بغريزته أنه صراع حتى الموت !
ويقف الثور .. ويحدق لحظة في الطوريرو .. كأنما يريد أن يغادره
وينطح !

ولكن الطوريرو ... أخف قدماً منه ..
وتدوم هذه العملية نحو خمس دقائق .. وصياح عشرات الألوف

يصم الآذان ! وهتافهم .. وضجيجهم كلما أتى الطوريرو بحركة
بديعة أعجبهم !
ثم ينفخ في الأبواق ..

الإجهاز على الثور :

ويتقدم الطوريرو ليجهز على الثور ...
وكأنما الثور يحس بأن هذه هي الخطوة الأخيرة ..
وتنعكس الآية — وما أعجب غريزة الحياة ! — فإذا بالثور حريص
على ألا يقترب من الطوريرو .. بل يقف موقف الدفاع وقد حنى رأسه .
وقرنه إلى عل .. مستعداً لنطح من يقترب منه !
وعلى الطوريرو .. أن يتقدم وأن يهاجم ...
ودورة أو دورتان سريعتان حول الثور ... ثم هجوم سريع .. ثم
تراجع أسرع .. ثم مفاجأة تذهل الثور !
.... وإذا بالسيف قد غاص في عنقه حتى المقبض !
ويدور الثور المسكين حول نفسه ... أو قد يتقدم نحو الطوريرو
يريد الانتقام .. ولكنه يكون قد أصبح أضعف من أن يستطيع حراكاً !
وأخيراً يسقط الثور ... ويتمدد .. ولكنه لا يزال رافعاً رأسه وكأنما
يودع نور الشمس ! هذا والأبواق ينفخ فيها ... والجماهير تصفق
وتدخل البغال .. ويتقدم أحد الرجال ويضرب مؤخرة عنق الثور
بقبضة يده ... فيرتخي رأس الثور ، وتربط قدماه بحبل ، وتشده البغال
إلى خارج الحلبة ..
ثم يدور الطوريرو في شبه عدو حول جوانب الحلبة ليتلقى تحيات
الآلاف شاكرًا برفع يديه ، وتقذفه الجماهير بالزهور ، وأحياناً بهدايا

الحلوى والسجاير التي يلتقطها أحد الخدم وهو يدور وراءه .
وكثيراً ما تكون بين هذه الزهور والهدايا « رسالة غرام » قد لفت
حول ساق وردة ! .. وفي الرسالة اسم الحسنة المعجبة .. وعنوانها
أو رقم تليفونها ... أو موعد للمقابلة !
وبعد فترة استراحة قصيرة ينفخ في الأبواق .. ويدخل ثور ثان ..
وهكذا .

وعدد الشيران التي يصارعها الطور يرو في كل حفلة ستة ..
ولكنني انصرفت بعد الثور الثاني ، وقبيل الإجهاز على الثور
الثالث .. لأن أعصابي لم تعد تحتل مشهد الصراع بين الحياة والموت ..
وغادرت الحفلة في الساعة السابعة والرابع .. مع أنها تدوم إلى الساعة
التاسعة مساء ..

والشمس — كما قلت سابقاً — لا تغرب في إسبانيا في شهر يولية
قبل الساعة العاشرة !

* * *

ليس في إسبانيا مسجد واحد :

حكم العرب إسبانيا أكثر من سبعة قرون ، وخفقت راية الهلال
في سماء شبه جزيرة أيبيريا إلى أواخر القرن الخامس عشر ، ومع ذلك
لم يبق في إسبانيا كلها إسباني مسلم واحد ... ولم يبق في إسبانيا كلها
مسجد واحد إلا مسجد قرطبة الذي أحاله الإسبان إلى كاتدرائية
... ولكن « قبله » الإمام لاتزال في مكانها ! ولا يزال المنبر قائماً في صدر
المسجد حتى اليوم !

وقلت لزميل صحفي إسباني يعمل بجريدة « أب ج » : أليس عجيباً أن

مدريد ليس فيها مسجد واحد يؤدي فيه المسلمون فروض دينهم ، مع أن
 في لندن وباريس وسواهما من عواصم أوروبا مساجد للمسلمين ؟ ..
 وإسبانيا مثل بريطانيا وفرنسا وإيطاليا رعايا من المسلمين ؟
 قال الصحفي الإسباني - ولو أنه ليس متأكداً من صحة ما يقول -
 قال : لعل السبب أن القانون في إسبانيا لا يسمح بممارسة شعائر أية ديانة
 إلا الديانة الكاثوليكية !

وأنا لا أصدق هذا . وإلا كان محرماً على البروتستانت والأرثوذكس
 وغيرهم ممارسة شعائر دينهم في إسبانيا !
 وفي إسبانيا جالية عربية - معظمها من المراكشيين - وعلى رأسها التاجر
 المشهور السيد مبارك صاحب محل « البرايو » - أي الفردوس - وهو
 رجل كون ثروته الأولى في تشيكوسلوفاكيا ، ثم استوطن مدريد ، وأصبح
 اليوم من أصحاب الملايين ..

وأعتقد أن في إمكان هذه الجالية العربية أن تشيد مسجداً في .. مدريد
 إلا إذا كان صحيحاً ما قاله الصحفي الإسباني من أن القوانين القائمة
 تحرم ذلك !

* * *

نافورة الدموع والأنين في قصر الحمراء :

وفي قصر الحمراء المشهور في غرناطة نافورة يحرص الزائرون
 على مشاهدتها والوقوف طويلاً أمامها يصغون لرواية الدليل ..
 يقول الدليل ، أو تقول الأساطير : إن أحد خلفاء الأندلس شك في
 أن لزوجته - أو بعبارة أصدق إحدى زوجاته - علاقة مريبة بأحد
 الأمراء ..

ودعا الخليفة المذكور الأمير : ودعا معه نساءه . وأهله وبناته وأولاده وخدمه وكل فرد من أفراد حاشيته ، وكان عددهم ستة وثلاثين !! دعاهم جميعاً إلى وليمة فخمة أقيمت لهم حول النافورة .

ولما انتهى الأمير وأهله وأفراد حاشيته من تناول الطعام . انقض عليهم حرس الخليفة وأمسكوا بهم وذبحوهم واحداً بعد واحد في النافورة ذبح الشياه !

وامتلأت النافورة بدمائهم حتى فاضت !

ثم يقول الدليل : سيداتي وسادتي ! وإذا جئتم هنا ليلاً ، ووقفتم أمام هذه النافورة سمعتم بوضوح صوت بكاء وحسرة تنبعث من النافورة ، وهو صوت الضحايا الذين أمر بذبحهم الخليفة المخدوع !

ويظهر أن العرب عندما نزلوا في إسبانيا توزعوا في أنحاء طوائف طوائف .. فالذين كانوا من أصل سوري مثلاً استوطنوا غرناطة ..

أما لبنانيو الأصل منهم فقد نزلوا في أشبيلية ..

والفلسطينيون والعراقيون اختاروا قرطبة ..

وإنك لتمضي أسبوعاً طويلاً في غرناطة فلا تلقى بين أهلها واحداً يضحك أو واحداً يبتسم !

ذلك لأنهم من أصل سوري ! والأصل غلاب !

وتلقى في أشبيلية مرح اللبنانيين وجددهم ونشاطهم .. وكذلك جودهم ونظافة دورهم !

أما في قرطبة .. فيكثر العراك والشجار في شوارعها ..

فرانكو . . والطابور الخامس :

ولعل هناك كثيرين لا يعلمون أن عالم الصحافة ، بل عالم السياسة

والسياسة والحروب ، يدين للجنرال فرانكو بهذا التعبير الذي انتشر على كل لسان حتى ليوشك أن يأخذ مكانه في قواميس كافة اللغات ، وأقصد تعبير « الطابور الخامس » .

تقدمت قوات فرانكو - في أثناء الحرب الأهلية - صوب العاصمة مدريد ، وكانت لا تزال تقيم فيها حكومة الجمهورية وتدافع عنها قوات الجمهوريين . والتف المراسلون الحربيون للصحف الأجنبية حول الجنرال فرانكو في مقر قيادته يسألونه عن مقدار أمله في النجاح باقتحام استحکامات مدريد ..

وأجابهم فرانكو : إن طوابيري الخمسة كافية تماماً للاستيلاء على مدريد .

قال المراسلون الحربيون : خمسة ؟ ! الذي نعرفه أن هناك أربعة طوابير فقط هي التي زحفت صوب مدريد !

وابتسم فرانكو وأجاب : نعم . ولكن طابوري الخامس في داخل مدريد نفسها !

يقصد الطابور السري المؤلف من أنصاره وجواسيسه وعيونه المندسين بين أهل مدريد ، والذين سوف يذيعون الرعب والفوضى والتدمير في المدينة ساعة تهاجم عليها قوات فرانكو ، ويسهلون على هذه القوات مهمة اقتحام مدريد .

وذهبت مثلاً يضرب لقوات الأعداء السرية الموجودة وراء الصفوف أو بين الصفوف !

وتحدثت في هذا مع الصحفي الإسباني فقال إن هذا « الطابور الخامس » المزعوم لم يكن في الحقيقة سوى « فشرة » أو لون من ألوان الدعاية قصد بها فرانكو أن يوهم الرأي العام العالمي أن أنصاره كثيرون

فى داخل مدريد نفسها - وهى يومئذ قلعة الجمهورية - فى حين لم يكن قد بقى فى مدريد يومئذ إلا كل جمهورى قح أصيل ! وربما كان لفرانكو يومئذ حفنة من الأنصار والجواسيس ، ولكنهم على كل حال كانوا أقل من أن يؤلفوا طابوراً أو ما يشبه الطابور !
وكأنما أحس الزميل الإسباني أنه قد أفضى بما لا يستحب أن يفضى به إسباني مخلص لفرانكو لأنه استدرك بسرعة وأضاف : وعلى كل حال فإن إسبانيا كلها - لا مدريد فقط - قد أصبحت اليوم تلتف حول الجنرال فرانكو !

الكأس ثمنها أربعة مليات ! ولكن صاحب البار يشيعك بتحيات الشكر إلى الباب :

فى سوق خضار ميدان العتبة الخضراء بار يقصد إليه الممثلون فى أيام الإفلاس .. وهى طبعاً معظم أيام السنة ، وهناك يرون ظمأهم بسعر الكأس الواحدة خمسة مليات ! وكان هذا قبل الحرب وقبل ارتفاع الأسعار ! أما اليوم فإن سعر الكأس قد ارتفع إلى قرشين ..

ولكن وجدت فى مدريد باراً أرخص بكثير من بار سوق الخضار .. قلت لصاحبي الكريم - وهو أحد موظفى مفوضية مصر فى مدريد - إن أحب أن أرى الأحياء الوضيعة فى مدريد ، وأن أجوس خلالها وأمشى فى حواريتها .. فليست فنادق الدرجة الأولى ، ولا مطاعم الدرجة الأولى ، ولا الأحياء النظيفة ، والشوارع الفسيحة بالتى تكشف لك عن حقيقة أى شعب من الشعوب .
وقادنى صاحبي إلى « الباريو باخوس » أى الأحياء الوضيعة فى مدريد ..

«الرائحة» ! .. ليست جديدة على أنفى ! .. فهى قريبة وابنه عم
لرائحة بعض أحياء القاهرة !

والأظافر القذرة ! .. والملابس المهلهلة القذرة ! .. والوجوه القذرة
التي لم تعرف الماء والصابون منذ أيام .. ولكن السباحة تعلو سيماها ..
والابتسام دائماً على شفاهها .. هى نفس الأظافر ونفس الملابس ونفس
الوجوه القذرة السمحة ، التي تلقاها فى بارات شارع محمد على
بالقاهرة ...

ووقفنا - أنا وصاحبي - أمام «البنك» أى رخامة البار ..
واقبلت علينا شقراء ضخمة الجثة مفتولة الذراعين تسألنا أى شراب
نطلب ؟

وأجابها صاحبي بالإسبانية التي درسها وأتقنها فى أثناء إقامته فى
مدريد ..

وملأت الشقراء كأسين ودفعت بهما أمامنا ..
ثم قدمت طبقاً مملوءاً بالجنبرى على سبيل «المزة» ..
وقضينا نحو ربع ساعة .. وأفرغنا كأسينا كيفما اتفق .. أما الجنبرى
فلم نمد له يداً ! ثم طلبنا الحساب ، وإذا بفاتورة الحساب ثمانون سنتيماً !
أى ثمانية مليمات .. بما فيها طبق الجنبرى المسلوق !
وترك صاحبي بقشيشاً قدره بيزرتان أى قرشان ..
قرشان بقشيش على حساب قدره ثمانية مليمات !
وشكرتنا الشقراء المفتولة الذراعين بلسان إسباني مبين ! وخرج
صاحب البار يشيعنا شاكراً إلى الباب !
وقلت لصاحبي وأنا أشد إلى صدرى نفساً من الهواء النظيف :

كل هذا الشكر من أجل ثمانية مليات ؟ ! ترى ماذا يفعلون لو كان حسابنا مثلاً عشرة قروش ؟

قال : فى هذه الحالة يشيعك جميع خدم وخادمت البار إلى الخارج وهم ينشدون أغنية إسبانية معناها : « أيها الضيف المحترم العزيز لقد أسعدتنا جداً زيارتك ، فلا تبخل علينا بهذه السعادة مرة أخرى ! »
ألا ليت لأصحاب المقاهى والبارات فى مصر مثل هذه الآداب العالية والذوق الحسن الكريم ! ..

الويل لمن تعجب به الراقصة ؟ !

وفى شارع الكالا - أى القلعة وهى كما ترى كلمة عربية حرف نطقها الإسبان - فى الشارع المذكور مرقص أو كاباريه صغير كوكبه أو نجمته راقصة اسمها « لاكونشيتا » .

ولاكونشيتا سمراء هيفاء القد حلوة العينين ، وصاحبة مزاج « نارى » خاص !

إذا أعجبها أحد الحاضرين .. رقصت أمامه وله .. رقصها البديع المثير .. ومالت عليه بين حركات الرقص ، وأرخت جدائل شعرها فوق وجهه !

فإذا ما انتهت من الرقص جلست معه إلى مائدته .. من غير استأذان ! ولو كان الرجل جالساً مع زوجته أو ابنته أو صديقه ! لا يهم ! ولاكونشيتا لا تهتم كثيراً ولا قليلاً بالرسميات ..

وتطلب لاكونشيتا الشراب لنفسها ولمن أعجبت به .. ولا يحسب أحد من زبائن صالات شارع عماد الدين أن لاكونشيتا تطمع فى

« العمولة » ، أو تفعل هذا طمعاً في المال . كلا لأنها هي التي تدفع الحساب !

وعلى الرجل « المعجب به » — إذا ما انتهت السهرة أن يصحب لاكونشيتا إلى دارها ..

أما إذا رفض الرجل أن يسمح لها بالجلوس معه . . أو رفض أن يصحبها إلى دارها .. فالويل له ثم الويل له ! .. لأن لاكونشيتا سوف تتناول جميع أقذاح وصحون الكاباريه وتحطمها على رأس المعجب به المذكور !

ولقد ذكرتني لاكونشيتا هذه بسيدة من كواكب السينما المصرية كانت إذا ثملت ، وتحركت في صدرها الأشجان — أشجان الهوى طبعاً ، وذكرى الحبيب المفقود ! — تناولت ما على المائدة من صحون طعام وأقذاح وقذفت بها وجوه الحاضرين !!

وقد مرت الراقصة لاكونشيتا مراراً من أمام مائدتي دون أن تلتفت إلى .
سامحها الله !

باريس وكيف وجدتها

نوفمبر ١٩٤٦ :

قلت لصحفي باريسى إن أديباً مصرياً كبيراً هو الدكتور طه حسين كتب مقالاً قال فيه إن الحياة فى فرنسا سهلة رخيصة ، وإنه كان ينفق هو وأسرته فى اليوم جنيهاً واحداً ، أى أقل من ٥٠٠ فرنك . . فأين هذا الرخص مما تعانيه وأعانيه ؟

وابتسم الصحفي الباريسى وقال : لعل أهل باريس تأمروا فيما بينهم ليجعلوا الحياة سهلة رخيصة على أديبكم المصرى الكبير !!
والحقيقة أن أهل باريس أنفسهم هم أول من يعاني شدة وطأة هذا الغلاء الذى جعل الحياة فى باريس « أغلى » من الحياة بين مدن العالمين .
لقد كنت شكوت من شدة الغلاء فى أنقرة وإستانبول . ولكنى أعتذر اليوم من غير تحفظ لإخواننا الأتراك ، لأن النسبة بين هاتين المدينتين وبين باريس ، هى كنسبة غلاء المعيشة بين فندق سيدنا الحسين — مثلاً — وفندق الكونتنتال !

وغلاء باريس من نوع عجيب ، فالأسعار عندنا فى مصر مثلاً ترتفع كل شهر أو شهرين ، ولكن الأسعار فى باريس ترتفع من يوم إلى يوم ، بل ترتفع بين الصباح والمساء .

قدح « الفرموت » الذى دفعت فيه أول أمس ، وفى مطعم الفندق ، ٥٥ فرنكاً ، دفعت فيه أمس ٦٥ فرنكاً ، ولا أعرف كم فرنكاً سوف يطلبون منى اليوم .

« والبيجاما » التي طلب مني محل « سولكا » ثمناً لها ستة آلاف فرنك في يوم الاثنين . . واستكثرت أنا الثمن ، أصبح محل سولكا نفسه يطلب فيها اليوم - الأربعاء - ستة آلاف وسبعمائة وخمسين فرنكاً ! وكانت وجبة الغذاء أو العشاء تكلفني في أحد مطاعم الشانزلزيه نحو ألف فرنك . فأصبحت الوجبة نفسها - وبعد أسبوع - تكلفني ١٢٠٠ فرنك !

والسبب ؟ ! . . عدم استقرار الحالة السياسية ، وما يتبعها من عدم استقرار « الفرنك » على سعر ثابت معلوم .
والسعر الرسمي للفرنك الفرنسي هو ٤٨٠ فرنكاً للجنيه الإسترليني ، ولكن هذا الجنيه الإسترليني يطلب اليوم في السوق السوداء بسعر ٩٥٠ فرنكاً . . أي ضعف السعر الرسمي .
والويل لنا نحن الذين احترمنا القانون وآثرنا أن نشترى عملتنا الفرنسية بالسعر الرسمي الحلال . . إذ أن الفرنك يكلفنا في هذه الحالة مليمين . . في حين أن قيمته الحقيقية لا تزيد على مليم واحد ! أي أننا ندفع في كل شيء ضعف ما يساويه !

ولقد جرت الانتخابات للجمعية الوطنية في يوم الأحد الماضي ؛ وفي مساء نفس اليوم ، عرف الجمهور أن الحزب الشيوعي يفوز على طول الخط ، وأن النصر مرتقب للشيوعيين . .
وفي سهرة نفس اليوم ارتفعت أسعار الطعام والشراب في حانات باريس ومطاعم الليل عشرة في المائة . وفي اليوم الاثنين تأكد فوز الشيوعيين . . وارتفعت الأسعار عشرة ثانية في المائة !
وهكذا يولي الشعب الفرنسي الشيوعيين ثقته السياسية في الانتخابات . . لكنه لا يوليهم ثقته المالية ، ولا يطمئن إلى مصير الفرنك على يد زعمائه الشيوعيين !

وكان من جراء هذا الغلاء المطرد أن قامت طبقات العمال والموظفين تطالب بزيادة الأجور . . وكان آخرها عمال الكهرباء الذين يهددون بالإضراب العام إن لم تجب طلباتهم . . وطلبهم هذا أصبح منذ أمس محل بحث الوزارة الفرنسية . وقد أُنذرتنا صحف باريس اليوم أن باريس قد تصبح ابتداء من يوم الاثنين بدون كهرباء ولا غاز ! . .

وهكذا تصبح مدينة النور . . مدينة الظلام !

ولكن هذا الظلام ليس غريباً على باريس ، فقد كانت قلة الفحم وامتناع السلطات البريطانية عن إرسال كمية الفحم المتفق عليها إلى فرنسا ، لأسباب يطول شرحها وليس هنا مقام عرضها ، كان من جراء هذا أن اضطرت السلطات الفرنسية إلى اتخاذ تدابير شديدة وحاسمة لمواجهة الموقف خلال فصل الشتاء . .

ومن بين هذه التدابير تخفيض عدد المصابيح المضاءة في الشوارع والميادين ، وإغلاق أماكن السهر - من مسارح وسينما وحانات وكاباريها - عند منتصف الليل أو بعده بقليل ، بعد أن كان السهر مباحاً وممكناً حتى الصباح . .

ولكن أشد هذه التدابير مضايقة للجمهور - ولى أنا بوجه خاص - هو قطع التيار الكهربائي فجأة ومن غير تمهيد ولا سابق إنذار لمدة ساعة أو ساعتين . .

وتتكرر عملية قطع التيار مرتين أو ثلاث مرات في اليوم .

وقد تكررت أمس أربع مرات . في الصباح بين ٨ و ٩ ، وبعد الظهر بين ٤ و ٥ ، ثم بين ٦,٣٠ و ٧,٣٠ ، ثم بين ١٠,١١ . وقد أكون جالساً إلى مكتبي في الفندق أكتب خطاباً أو مقالا ، وفجأة يقطع التيار ويسود الظلام ، وأقوم (أدعيس) وأتخبط بين المقاعد أبحث عن صندوق الثقاب ، أو عن باب الخروج . .

أو أكون واقفاً أمام المرأة أحلق ذقني .. أو جالساً أتناول الطعام ..
وفجأة يسود الظلام .. ويهرع الخدم يضيئون الشموع .

كما يقطع التيار ويسود الظلام فجأة .. وكذلك فجأة يسرى التيار
وينبعث النور . وهنا قد تجد الأنسة الجالسة إلى المائدة المجاورة قد نهضت
مسرعة في طريقها إلى « التواليت » وتجد زميلها قد أخرج منديلها يمسح به
في شدة خده وشفتيه !!

وتبحث السلطات في هذه الأيام اقتراحاً تقدمت به شركة الغاز
والكهرباء يقضى بقطع الكهرباء تماماً يومين متتاليين في كل أسبوع
توفيراً للفحم . وتستثنى الأماكن ذات الفائدة العامة للجمهور مثل
المستشفيات وبعض المصانع وترام المترو .

وفي هذه الحالة يقطع التيار من الساعة صباحاً إلى الرابعة مساءً ،
ما عدا ساعة واحدة عند الظهر ، وساعة أخرى في المساء من أجل طهي
طعام الغداء وطعام العشاء .

وإذا نفذ هذا الاقتراح فإنه سيحدث ثورة في حياة فرنسا ، وخصوصاً
حياة باريس ..

هذه بعض متاعب الحياة في باريس ... وليس أقلها شأناً ازدحام
وسائل الانتقال ، حتى المترو أصبح يذكرني بترامواي « المدبح » في
الصباح وقد تكدست فيه أكوام الركاب .

أما « التاكسيات » التي كانت من أرخص ألوان الحياة في باريس
فقد أصبحت في قلبها وندرتها مثل البن والسجائر والسكر .. لا يقدر
عليها سوى أغنياء الأغنياء !

وقد تلتى بعد عناء « تاكسي » ، وتستوقفه ، وإذا بهم بفتح باب
والركوب يسألك السائق : إلى أية جهة تذهب ؟

وتقول له مثلاً : الإتيال (فى شمال باريس) .

ويهرز رأسه ويقول : كلا . . أنا ذاهب إلى بورت دورليان (فى الجنوب) .

وإذا شئت أن تتركب فإن عليك أن تغير خط السير وتذهب إلى الجنوب بدلاً من الشمال نزولاً على رغبة السائق المفضل .

وعند نهاية الشوط ، قد يدل العداد على أن الأجرة المستحقة هي مثلاً سبعون فرنكاً . ولكن . .

— إننى أشتري ياسيدى لترالبتزين من السوق السوداء بمائتى فرنك (على هذا الأساس يبلغ سعر الجالون ٨٠٠ فرنك وثمان الصفيحة ٣٢٠٠ فرنك) .

ويمضى السائق فى احتجاجه واعتراضه على العداد وكل من يحترم العداد ؛ ولا تجد مفراً من أن تدفع له ضعف الأجرة التى سجلها العداد !

ومونبارناس ماذا فعل الله بها؟ أين أنوارها، وأين مقاهيها وحاناتها؟ وأين فتياتها وطالبات السوربون؟ وأين الفنانون والرسامون والموسيقيون؟ وأين العاملات؟ وأين المرح؟ وأين الفتنة؟ وأين الشباب؟ . . وأين رواد الدوم والكوبول؟ !

كل هذا ولى وراح . . «الكوبول» و «الدوم» خاليان أو يكادان، ويقف خدمهما — كما نقول فى مصر — يهشون الذباب !

سألت أحدهم : ماذا جرى؟ وأين وأين . . مما كان فتنة وبهجة فى الأيام الحالية؟ فقال : قلة الأجانب الزائرين ؛ فقد كانت مونبارناس تعيش ياسيدى على زائرى باريس من الأجانب ، ولكن قيود العملة ، وصعوبة وسائل الانتقال ، قد قعدت بالناس عن السفر ، ولا بد أن تمضى أعوام قبل أن يعود الأجانب ، وخصوصاً الإنجليز ، إلى باريس

وأما فتيات مونبارناس فبعضهن هرب من باريس هربن إلى إسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا . . . ولم يعدن منها حتى الآن ، ولعل الحياة طابت لمن هناك . وبعضهن - طائفة الطالبات - عدن إلى أوطانهن ، ولم يعدن بعد إلى باريس . . . والبعض منهن بقين ، وتفرقن الآن في أحياء باريس يطلبن الصيد الحلال بين جنود وضباط الأمريكان ، وهؤلاء يعيشون في وسط باريس أو في شمالها بعيداً عن مونبارناس .

وعلى كل حال لم يبق في باريس سوى عدد قليل نسبياً من القوات الأمريكية ، والمنتظر بعد سفر هؤلاء أن تعود الضباط إلى قواعدها في مونبارناس . .

ولكن أسعار الأمس لن تعود ! فلن تقبل فتاة بعد اليوم أن تمنحك سهرتها من أجل وجبة طعام كانت تكلفك في الأيام الحالية ثلاثين فرنكاً أو أقل من ريال !

كلا ! لا بد أن تقدم لها الآن - عربوناً على ودك وإعجابك - علبة سجائر « لاكي ستريك » وقطعتين أو على الأقل قطعة واحدة من الصابون ! وهذه وتلك تكلفانك ما لا يقل عن جنيه !

وبعدها تستطيع أن تفتح معها حديث الغزل وتسمع منها أنها سوف تحبك « مدى الحياة » . . ومدى الحياة في قاموس مونبارناس معناه « أسبوع » !

وأما مونمارتر فإنها أسعد حظاً من مونبارناس ، فلا تزال مسارحها المعروفة مفتوحة تزدحم كل مساء بالمتفرجين برغم ارتفاع الأسعار . ومعظم المتفرجين فرنسيون لا أجانب . والنقود كثيرة - ولكن البضائع قليلة - وهذا من أسباب التضخم وأسباب الغلاء .

ولكن « كواكب ونجوم » ما قبل الحرب قد اختفوا . . وحل مكانهم نجوم جدد .

وبين الذين اختفوا موريس شفالبيه . فقد ظهر أولاً على مسرح « أ ب ج » ، ولكنه لم يلق قبولا كبيراً عند الجمهور . ولعله لا يزال متهماً عند الكثيرين بأنه تعاون مع الألمان ، مع أن حكماً قضائياً صدر ببراءته من هذا الاتهام .

ولما انتهى عقد اتفاقه مع المسرح المذكور ، رفض المسرح أن يجدد العقد . . ولم يتلق موريس عرضاً من أى مسرح آخر . وهو الآن ينشر مذكراته في إحدى صحف باريس ! ويبدو من مقالاته أنه بدأ يعتنق مذهب الشيوعيين ؟!

والعجوز الخالدة « مستنجت » تقضى الآن شهر العسل مع زوجها الشاب الإيطالي . وعمر العريس ٣٠ سنة وعمرها هي ٧٩ سنة ! وقالت إحدى مجلات باريس - ومن الصعب ترجمة النكتة الفرنسية إلى العربية - قالت إن هذا الزواج ليس زواجاً بالمعنى المفهوم ، بل هو زواج بالتبني !

لأن مستنجت كانت تزوجت من جد العريس في عام ١٨٩٩ !! ومع ذلك فإن مستنجت ما تزال صاحبة أجمل ساقين في باريس ! وجوزفين بيكر كوفت منذ أيام بوسام فرنسي على عملها في حركة المقاومة السرية في أثناء الاحتلال . . .

وكانت قد ذاعت قبل الانتخابات الأخيرة شائعة تقول إنها سوف ترشح نفسها نائبة عن إحدى دوائر المستعمرات الفرنسية . . . ولما لم يظهر اسمها في قوائم المرشحين ، قالت إحدى المجلات إنها سوف تتقدم لانتخابات مجلس الشيوخ ! ويسمونه الآن مجلس الجمهورية ! وعلى كل حال فإن جوزفين لا تعمل الآن على مسارح باريس !

• • •

هذه صورة سريعة عن باريس . . .



الجنود الأمريكيان في باريس أثناء الحرب العالمية الثانية

وإذا كان هناك خبر يضاف إلى ما سبق فهو أن طبيباً اسمه هـ. ج .
فيولا قد اكتشف علاجاً للصلع . وقد بدأ تجاربه في صلعة رجل اسمه
مسيو جان لافيني . .

والعلاج يستغرق أسبوعين .
وتؤكد صحف باريس أن « فروة » أو « زغباً » خفيفاً قد ظهر في
صلعة مسيو لافيني بعد أسبوع من بدء العلاج !

وبعد ... فإن باريس متعبة حقاً ، ولكنها ما تزال حبيبة إلى القلب ...
حبيبة بالرغم من « ظلامها » وبالرغم من غلامها . . . حبيبة لأن جمالها
خالد ، ومرحها خالص صادق ، وفنتتها لم تنل منها سنوات الشقاء .
بل هي أشبه بالمرأة التي يلعب جمالها ويبهز إذا امتلأت عينها
بالدموع !

سرت على قدمي نحو ثلاث ساعات . مكرهاً لا بطلا . فأنا أكره
المشي ، ولقد كان أمس الأحد . وكان الجو صحواً ، وللمرة الثانية -
في أسبوعين - رأينا الشمس وأحسنا دفأها . ولو كان الأمر بيدي
أو كان الأمر كالزمان الأول ، لناديت « تاكسي » وقلت للسائق :
غابة بولونيا ، أو فيلييه سيرمارن . . . أو أية صاحبة من ضواحي باريس
أتناول فيها غدائي بين الماء أو الخضرة وبس ! ولكن أين هو التاكسي !
خرجت إذن من فندق الكريبيون سائراً على قدمي . . محترقاً ميدان
الكونكورد - وكان من قبل ميدان الثورة - وقد قامت في وسطه المسلة
المصرية ، على مقربة من المكان الذي قامت فيه منذ قرن ونصف قرن
المقصلة (الجليوتين) التي سقطت تحت حدها رأس لويس السادس
عشر ، ومن بعده رأس ماري أنطوانيت .
واجتزت الميدان إلى كوبري ألكسندر ، أجمل جسور باريس
المقامة على نهر السين .

رعاع الأمس حكام اليوم :

وعلى هذا الجسر ، وفي أوائل عام ١٩٣٤ . حاول « الرعاع » كما أسماهم رئيس وزراء فرنسا وقتئذ إدوارد دلاديه — حاولوا أن يجتازوا الجسر ليهاجموا قصر بوربون ومقر مجلس النواب . وأمر دلاديه رجال البوليس بإطلاق النار على جموع الرعاع !

وكانت هذه المظاهرة أول حركة عنيفة قام بها « اليسار » من كثرة اشتراكية وقلة شيوعية ، وهم الذين أسماهم دلاديه يومها « الرعاع » !
ورعاع الأمس هؤلاء هم اليوم أصحاب الكثرة . . . وأصحاب المنصب والسلطة والحكم في فرنسا !

« الصديقة » الرسمية ؟

وفي مواجهة الكوبرى يقوم قصر بوربون . . . مقر مجلس النواب . والجزء الذى لا يتجزأ من تاريخ فرنسا خلال القرن ونصف القرن الأخير . والقاعة التى دوت فيها أصوات زعماء الثورة ، ومن بعدهم مشاهير الأقطاب من جامبتا وكليمنصو وبوانكاريه وميليران ، إلى زعماء الأمس القريب مثل لافال ابن الحزار ودلاديه ابن الحبار والمعلم سابقاً فى مدرسة الليسيه . . . ويدوى فيه اليوم صوت الشيوعيين طوريز البناء وديكلوه الحلوانى ، وكلاهما بين المرشحين لرئاسة الوزارة !

وهذه هى الديمقراطية بحسناتها وسيئاتها !

وفى الميدان ، وإلى يمين قصر بوربون ، تقوم عمارة . . . كانت تسكن فى إحدى شققها كونتس هيليين دى بورت صديقة بول رينو رئيس الوزارة فى عام ١٩٤٠ . . . وقد قتلت فى حادثة سيارة فى العام نفسه .

ولم تكن هيلين جميلة ، ولا على شيء من الجمال . ولكنها كانت ذات شخصية قوية عصبية ، وكانت طموحاً ، وكان أقصى مطامعها أن تدفع أمامها عشيقها بول إلى أعلى درجات سلم المجد ، وأن تصعد هي وراءه . وقد استطاعت أن تفرض إرادتها على إرادته ... كان الرجل ، وما زال ، فرنسيًا وطنيًا مخلصاً ، وكانت هي من أنصار سياسة الاتفاق مع هتلر وألمانيا ...

كان رينو يبرم الأمر في الصباح ، لكي تنقضه هي في المساء . أما الأمر الذي كانت تبرمه هي ، فالويل لرئيس الوزارة - بول رينو - إذا راجعها فيه ...

كانت تذهب معه إلى مقر عمله الرسمي في « الكي دورسيه » - وزارة الخارجية - أو إلى سراي ماتنيون ، وكانت تجلس إلى مكتبه وترد نيابة عنه على التليفون !

وكانت تستقبل رؤساء الجيش وأميرالات البحر ، وتصدر أوامرها إليهم . . . والويل للعزیز بول أو « ميكي ماوس فرنسا » - كما كان خصومه يسمونه - إذا اعترض أو نقض أمرًا من أوامرها . كان صياحها يعلو على كل صوت وكل ضوضاء حتى يسمعه المارة في الطريق !

ونشبت الحرب وبول رينو وزير للعدل في وزارة دلادييه ، ولكن هيلين كانت تطمع في رئاسة الوزارة لصديقها بول ؛ ومن ثم راحت تدفعه وتوغر صدره وتوحى إليه بالمقالب والمشاكل والعقبات يقيمها في طريق دلادييه .

وكان لها ما أرادت ، وسقط دلادييه ، وتولى الحكم بول رينو . . . وانتصرت هيلين دي بورت على غريمته المركيزة جان دي . . . « صديقة » دلادييه ! (وهي لا تزال في باريس وعلى قيد الحياة) .

وهكذا كانت الوزارات تقوم وتسقط في فرنسا في عهد ما قبل الحرب ...

كانت المرأة كل شىء من وراء الستار ؛ لأن كل زعيم من زعماء فرنسا كانت له « صديقة » رسمية يختارها من بين نبيلات وشريفات فرنسا أو من بين راقصات الأوبرا أو ممثلات الكوميدي فرانسيز ولا داعي لذكر الأسماء !

ولما استفحل يومها أمر هؤلاء « الصديقات » وازداد تدخلهن في سياسة فرنسا ، كتبت مجلة « لى كانارانشنيه » تتساءل : أليس الخامس عشر لا يزال على قيد الحياة ؟! إشارة إلى عشيقته المشهورة مدام دى بومبادورالتي كانت تعين السفراء وتقبل الوزراء !
وللمجلة المذكورة عبارة مشهورة أطلقتها في « بونيه » وزير الخارجية الفرنسية عند قيام الحرب قالت عنه يومها إن مسيو بونيه يخدم مصالح كل دولة في أوروبا . . . إلا دولة فرنسا .

هذا هو عهد ما قبل الحرب . . فهل انقضى إلى غير رجعة ؟
هذا ما يؤكد الفرنسيون اليوم .

الخالدون الأربعون :

هأنذا قد وصلت في سيري إلى تمثال الساخر الخالد « فولتير » وهاهي ذى إلى يميني الدار التي سودها د خان باريس وضباب باريس ورطوبة السين .. دار الأكاديمية الفرنسية مقر « الأربعين الخالدين » كما يسميهم الفرنسيون . هذا وإن يكن هؤلاء الفرنسيون لا يعرفون أسماء هؤلاء الخالدين ، تماماً كما هو الحال في مصر ، فكم بين المصريين من يعرف أسماء « الخالدين » أعضاء المجمع اللغوي ؟!

والخالدون مشغولون الآن بإعداد قاموس كامل للغة الفرنسية ، وهم لا يوافقون على إدراج أية كلمة في القاموس إلا إذا كان قد مضى

على شيوخها واستعمالها عشرون سنة على الأقل ! ومن هنا سوف نجىء قاموسهم - كما جاءت قواميسهم السابقة - بعيدة عن روح العصر ولغة العصر الذى نعيش فيه .

وكانوا قد أصدروا فى عام ١٩٣٥ الطبعة الثامنة من قاموسهم ، وطبعوا منها خمسة عشر ألف نسخة لم تبع المكاتب منها - برغم رخص ثمنها - سوى بضع مئات ؛ ذلك لأن قاموس « الحالدين » لا يحتوى إلا على خمسة وثلاثين ألف كلمة . فى حين يحتوى قاموس « لاروس » على مائة وعشرين ألف كلمة .

هتلر ونابليون :

وتعبت قدمائى من المشى فوقفت ، وظهرى إلى نهر السين ، مستنداً إلى جدار « الرصيف » . ومن حيث وقفت بدت أمامى قباب « الأنفاليد » الذهبية التى شيدها الملك « الشمس » لويس الرابع عشر ، والتى يرقد تحتها منذ قرن رفات الإمبراطور نابليون .

ولقد زارها هتلر بعد سقوط باريس . أقبل هتلر على « الأنفاليد » ومن خلفه جيش من الصحفيين والمصورين الألمان والمحايدين .. وكل منهم ممسك بقلمه أو بآلة التصوير وقد حبس أنفاسه لسمع ويسجل ما يقوله هتلر أمام قبر نابليون ... ولكن هتلر وقف طويلاً ... طويلاً ... طويلاً ، يحدّق ، ويحدّق تحته فى الصخر الأصم الذى يضم رفات نابليون . وطالت وقفته ، وطال سكوته .

ترى فمى كان يفكر ؟ فى أوجه الشبه بينه وبين نابليون ؟ ... وفى أن نابليون كان معروفاً فى جيشه بلقب « الكابورال » أى « الأوباشى » الصغير ؟!

وكان هتلر في الحرب العالمية الأولى « أومباشي » ... وكلاهما كان « أجنبيًا » — بمعنى ما — عن البلد الذي تولى فيه السلطان . كان نابليون من جزيرة كورسيكا ، وكان هتلر من بلدة « لنز » في النمسا .

دوخ نابليون أوروبا ، وزلزل عروشها وأخضعها بسيفه وسلطانه ..
وها هو ذا هتلر — في يونية سنة ١٩٤٠ — قد أخضع ست دول من دول أوروبا في تسعة أسابيع !

والخاتمة . . النهاية !

هل فكر هتلر يومها في نهاية نابليون ؟ . . وهل يرفعه القدر — كما رفع نابليون — لكي يهوى به بعد حين ؟

ألهذا طالت يومها وقفته وطال سكوته ؟! هل رفعت عن بصره حجب الغيب فرأى نهايته بعد خمس سنوات ... وأن هذه النهاية ستكون أقسى وأفجع من نهاية نابليون ؟!

تعال معى إلى الريفيرا

مونت كارلو - ديسمبر ١٩٦٧ :

كثيراً ما قيل إن شرفة (تراس) فندق شبرد بالقاهرة (الفندق القديم الذى احترق فى يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢) هى ملتقى أمم الأرض ، وإن رجال الأعمال والصحفيين وهواة السفر لا بد أن يمروا بها فى يوم ما . . وإنك إذا أردت أن تقابل إنساناً ما فى العالم فما عليك إلا أن تجلس فى شرفة فندق شبرد وتضع ساقاً على ساق وتنتظر . . . وقد يطول انتظارك ، ولكن لا بد أن يمر بك الذى تريد مقابله ، ولو بعد عام أو عشرة أعوام !

ويمكن أن يقال هذا عن كافيه (مقهى) ده بارى فى مونت كارلو فهو مثل شرفة شبرد ، ملتقى أمم الأرض ، ولا بد لكل رحالة أو صحفى أو عظيم أن يمر به ويجلس فيه يوماً ما .
و « جاستون » رئيس الخدم مستعد دائماً - وفى مقابل سيجارة - أن يقص عليك كيف كان صاحب الجلالة جوستاف الخامس ملك السويد يتناول عنده - عند جاستون - الشاى .

هذا قبل الحرب ، وكان جلالته يمضى الشتاء دائماً بين « نيس » « وكان » على الريفيرا . وكانت رياضته المحبوبة - وما زالت - لعب التنس . . . ومستر تشرشل من زبائن جاستون أيضاً . ولكنه لم يكن يتناول الشاى بل شرباً آخر أقوى من الشاى !

ودوق ودوقة وندسور ، وخديو مصر السابق عباس حلمى ، وأغا خان ، وستافسكى النصاب المالى الفرنسى المشهور ، وجريتا جاربو

وهي في طريقها إلى إيطاليا عام ١٩٣٨ ... كل هؤلاء جلسوا في مقهى دى بارى ، وجاستون يعتزبذكرياتهم ، ولا شيء يلد له أكثر من أن يقضى ساعة في الحديث معك عن هؤلاء العظماء !

وكانت آخر مرة جلست فيها في كافيه دى بارى في أواخر شهر أغسطس عام ١٩٣٩ . وكان نذير الحرب يدوى ، فهبطت من باريس إلى الريفيرا وأقمت بضعة أيام في كاب داي ومونت كارلو في طريقى إلى مارسيليا ، والباخرة ، ثم كنانة الله في أرضه التي هي مصر .

ويقع كافيه دى بارى في صدر الميدان الذى يقوم على جانبيه كازينو مونت كارلو وفندق دى بارى وتمر بهذا الميدان خطوط كثيرة من « الأومنبوس » ، وهى سيارات ضخمة فخمة مريحة تسير على طول الريفيرا بين منتون وكان ، وما وراء « كان » من القرى الصغيرة التى أصبحت مشاتى يفضلها طلاب الراحة والشمس والهدوء .

كان الجو أشبه بجو الربيع في رمل الإسكندرية ، شمس حنون ناعمة ، ونسيم بارد إلى حد ما ، فركبت إحدى هذه السيارات ومعى صحفية روسية كنت قابلتها على ظهر الباخرة « بروفيدانس » ، ثم جمعتنا المصادفة هنا .

تشرشل في الريفيرا :

وكان مستر تشرشل كثير التردد على الريفيرا قبل الحرب الماضية ، وكان ينزل عادة في ضيافة أسرة فرنسية نبيلة في قصرها في « كاب دانتيب » ، وكان يقضى صباحه بثوب الاستحمام ومن فوقه « برنس الحمام » ، وكلاهما لونه أحمر فاقع ومن فوق رأسه قبعة عريضة من الخوص . ولكنه لم يكن ينزل إلى البحر ، بل كان يقنع بالتمدد فوق كرسى طويل على شرفة تطل على البحر ليتحدث إلى من حوله في السياسة وفى أخطاء

زملائه زعماء المحافظين ، الذين كان يكرههم أكثر مما يكره زعماء العمال أو الأحرار ! فكان مستر بلدوين في نظره رجلاً لا تعوزه الشجاعة ، ولكنه كان مولعاً بالجلوس فوق الجدار — ومعناها عندنا الوقوف بين معسكرين أو المشي على حبلين !

أما مستر نيفل تشامبرلين فكان تشرشل يقول عنه إنه مغرور وغبي ولا يصلح لشيء إلا للجلوس في مكتب تجارته تجارة الصيني وأدوات المطبخ والكرار .

وسئل يوماً عن البريطاني الذي يعتقد أنه أعظم ساسة القرن العشرين . فأجاب بعد لحظة قصيرة : أنا . . . ورامزي ماكدونالد لو كان ولد ونشأ وترني في حزب المحافظين !

دوق وندسور :

وفي قرية « إز » كان يقيم في وقت ما في دار صغيرة إدوارد ألبرت كريستيان أندرو باتريك دافيد ملك إنجلترا سابقاً ودوق وندسور الآن ، ومعه زوجته التي ولدت في باليتمور ، واسمها بيسي واليس وارفيلد وأصبحت الآن صاحبة السمو الملكي دوقة وندسور .

ولكن هذا هو لقبها خارج إنجلترا فقط . . . أما في إنجلترا الرسمية فلا يعترف لها بالسمو الملكي .

والاثنان محبوبان هنا في الريفييرا ، وكلاهما كثير الاختلاط بالناس وبكافة الطبقات ، ولم يكن غريباً أن يقابل زائر الريفييرا « إدوارد الثامن » سابقاً في دكان بقالة يشتري بضع علب سردين . . . أو يحمل في يده كيساً من الورق فيه خضار وفاكهة يحمله إلى زوجته ، وهي تنتظره في السيارة الواقفة في الميدان !

حدث ذات مساء في قاعة الطعام في فندق كارلتون في « كان » ، أن دخل دوق ودوقة وندسور ، وكانا في طريقهما إلى مائدتهم . . . مائدة كان يجلس حولها بضع سيدات إنجليزيات ، ونهضت السيدات عند مرور الدوق احتراماً ، وحنى هو والدوقة رأسيهما تحية ، وابتسمت الدوقة ابتسامة عريضة للسيدات الإنجليزيات .

ولكن إحداهن قالت وهي تجلس ثانية . . . قالت بصوت سمعه جميع من كانوا في هذا الركن من قاعة الطعام ، والدوقة طبعاً معهن : لقد وقفنا احتراماً لسمو الأمير . . . وحده !

وكره سيدات الطبقة الإنجليزية الراقية لدوقة وندسور أمر معروف !

ملوك الحرب والمال :

وقد قنعت في الغداء بالمحار والسّمك والخضار ، في حين التهمت الزميلة « بفتيكاً » شهياً من لحم الخيل ، ثم قمنا نتمشى على طول شاطئ البحر ، أو كما يسمونه في نيس : ممشى الإنجليز « بروميناد دزانجليه » وإلى الخلف في الشارع المواجه للكاзино تقوم حتى اليوم « فيلا » هي أقرب في حجمها إلى أن تكون قصرًا منيفاً . . . يسميها بعض الأهالي « الفيلا الحزينة » ، وكان يقيم بها رجل أوربا الغامض ، كما كانت الصحافة تسميه منذ نحو ثلاث قرن أو يزيد أعني سير بازيل زاخاروف ملك الذخائر الحربية ، وصديق ملوك أوربا ، والحاكم المتصرف في سياسة أوربا وفي سياستها ، والعامل القوي المحرك للحرب والسلام من وراء الستائر ، الحائز للوشاح الأكبر من نيشان الحمام ، والوشاح الأكبر من نيشان اللجيون دونير . . . وبازيل زاخاروف يوناني الأصل . ولد من أسرة فقيرة في قرية من أعمال أزميز في الأناضول ، ورعى الغنم في صباه ، ثم هاجر

إلى أوروبا ... وجاء يوم كان يتأبط فيه ذراع إدوارد السابع ملك إنجلترا ويمزج معه من غير كلفة .

وقالت الزميلة الروسية :

في هذه الأقيال كان يقيم زاخاروف الحفلات . وكان يجتمع عنده هنا في نيس زملاؤه ملوك المال والصناعات في فرنسا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا والسويد وهولندا وكنت ترى بين مدعويه البارون دترونج الهولندي وشنيدر الفرنسي ونيسن الألماني ، وكان همهم الأول حماية أملاكهم وأموالهم الموزعة في أركان الأرض وحماية مصالحهم في أوروبا وأمريكا وأفريقيا

وبالرغم من المنافسة في ميادين الأعمال والمال ، كان بينهم شبه اتحاد أو أئتلاف ضد العدو المشترك : الشيوعية والخوف من انتشارها بين طبقات العمال . وعلى أكتاف العمال قامت ثرواتهم الضخمة التي تعد بمئات الملايين !

ومن ثم آزرُوا الاشتراكية الوطنية في ألمانيا ، والفاشية في إيطاليا ، ومدوا هتلر وموسوليني في دور كفاحهما الأول بالأموال ، وهكذا مهدوا للحرب العالمية الثانية التي ابتلعت أموالهم في فرنسا وتشيكوسلوفاكيا وهولندا وبلجيكا وكادت توردهم موارد الحراب ولكن زاخاروف لم يعيش ليرى ذلك اليوم ، فقد مات قبل نشوب الحرب ببضع سنوات حزناً على زوجته التي كان يحبها حتى العبادة . ولعل حبه هذا هو النور الوحيد في حياته النور القدسي الذي قد يقربه إلى عرش الله !

وجلسنا نتناول الشاي في كازينو نيس ، وقالت الزميلة : أعتقد أنه قد مضى ذلك العصر الذي كان ممكناً فيه أن يجمع رجل واحد بين يديه ثروة ضخمة يتحكم بها في ذم قادة الأمم وفي أقدار الشعوب !

سويسرا كما رأيتموها

سان موريتز في ٣ يناير :

إذا كانت إنجلترا وفرنسا وأوروبا الوسطى والشمالية قد عانت في الأيام الأخيرة موجة من البرد القارس آتية من سيبيريا، وزادت من قسوتها قلة الفحم ، فإن سويسرا ، ولا سيما سان موريتز ، تشكو من قلة الثلج الذي لا غنى عنه لألعاب الشتاء . وقد قضيت هنا إلى الآن أسبوعين كانت الشمس في كل يوم تقريباً حامية تذكرك بأسوان ، لولا أن درجة الحرارة هنا عشرة تحت الصفر في النهار ، و ١٧ في الليل .

وكانت الفنادق هنا تتوقع أن يبلغ موسم الشتاء رقمًا قياسيًا يجاوز ما بلغته ذروته قبل الحرب ، وكانت المشاتي المشهورة مثل سان موريتز ، ودافوس ، وأروزا ، قد حجزت فيها المحال طول الموسم ، أما الفنادق الفخمة مثل سوفريتا ، وبالاس ، فحجزت فيها المحال إلى آخر يناير ، ولكن القيود الجديدة التي فرضت على خروج النقد دعت إلى إلغاء الحجز في آخر لحظة ، ولا سيما حجز السياح البريطانيين ، فكانت النتيجة أن الفنادق الكبرى أصبحت غير غاصة ، ولا تمتلئ إلا في فترات وجيزة ، وذلك لأن الاتفاق الذي عقد حديثاً بين بريطانيا وسويسرا يقضي بأن السياح البريطانيين - وهم لا يسمح لهم إلا بخمسة وسبعين جنيهًا في الشهر خارج إنجلترا - لا يأخذون عند وصولهم إلى هنا سوى ثلث هذا المبلغ أي ٢٥ جنيهًا نقدًا لنفقاتهم الشخصية ؛ أما الثلثان الباقيان فأذونات لا تستخدم إلا في دفع نفقات الفنادق والمطاعم والملاهي والتنقل .

والغرض من هذا القيد هو حماية أسواق سويسرا من السياح الذين يستخدمون ما معهم من مال في شراء السلع التي لا يمكن الحصول عليها في بريطانيا .

وكان هؤلاء السياح يجيئون ومعهم كل المبالغ المسموح لهم بها في الشهر ، فيقيمون يومين ويعودون إلى إنجلترا مثقلين بالبضائع السويسرية . أما النظام الجديد فيضمن إنفاق ثلثي المبلغ المسموح به في أغراض السياحة الحقيقية ، ويترك للسائح ٢٥ جنيهًا ينفقها فيما يشاء .

* * *

ويفكر أولو الأمر في سويسرا في الاتصال بالحكومة المصرية لعقد مثل هذا الاتفاق فيما يتعلق بالمصيفين المصريين ، وذلك لأنه حدث في الصيف الماضي أن جاء بعض المصريين إلى سويسرا ، ليحولوا ما معهم إلى فرنكات سويسرية ويستبدلوا بها فرنكات فرنسية ، ثم يطيروا عائدين إلى باريس في اليوم نفسه .

ومع أن هذا القيد لا غبار عليه من الوجهة الاقتصادية ، فإن أصحاب الفنادق يشكون منه ويتذمرون ، ويقولون إنه يقضى على موسم السياحة في سويسرا ، وإن السياح يفضلون الآن أن يذهبوا إلى الريقييرا أو المشاتي الفرنسية حيث تكاليف المعيشة أرخص ، والأنظمة غير شديدة ، ولا وجود لمثل هذه القيود . غير أن دوائر الحكومة السويسرية تقول إن سويسرا اليوم في موقف شاذ يضطرها أن ترفض الدفع لها بعملة أجنبية ولو كانت ذهبًا ، وتقول أيضًا إن لدى سويسرا الآن كل الذهب الذي تحتاج إليه ، وكل الدولارات وكل الجنيهات الإسترلينية التي تلزمها وزيادة . أما الذي تفتقر إليه سويسرا حقًا فهو القطن والصلب والقمح والحبوب والسكر والحامات ، لكن بدلًا من أن يدفع لها الأجانب عينًا هذه المواد ، تباع هي بضائعها بنقود أجنبية لا تحتاج إليها .

والواقع أن الزائر يرى في سويسرا دلائل الرخاء في كل مكان ، فالحال التجارية في كل المدن الكبيرة خاصة بكل أنواع الأطعمة والبضائع التي يصعب الحصول عليها في أي مكان آخر في أوروبا الخائفة . ومن أمثلة ذلك أن جنيف لا تبعد إلا دقائق بالترام أو القطار عن أرض فرنسا ، ولكن المسافر الذي ترك وراءه دكاكين خالية في أرض فرنسا يجد في جنيف وفرة في السلع والأطعمة والأشربة حتى في الأنبذة الفرنسية التي يتعذر الحصول عليها في فرنسا نفسها فيما عدا السوق السوداء . ويؤكد السياح البريطانيون أنهم يجدون في سويسرا من السجائر الإنجليزية والويسكي الأسكتلندي والمصنوعات الجلدية البريطانية أكثر مما يجدون في بريطانيا .

والحقيقة أن نظام البطاقات والكوبونات إن كان معمولاً به هنا فإن المواد الناقصة حقاً هي السكر والخبز ، وجراية الخبز هنا أقل منها في إنجلترا ، وأهل سويسرا فيهم ذمة لا تسمح لهم بالاتجار في السوق السوداء التي لا تكاد توجد إلا في جنيف الدولية التي يكثر فيها اليهود .

* * *

وسويسرا بلاد نجت بأعجوبة من آثار حربين عالميتين وبيلتين ، وزادت على ذلك أنها استفادت منهما ، فازدهرت الصناعة السويسرية في أثناء الحرب ، ولا تزال مزدهرة ، والبضائع السويسرية مطلوبة في كل مكان في العالم ، وكان من الممكن ، أن تغرق أسواق العالم لولا نقص الفحم وقلة الأيدي العاملة . وقد استغل رجال الصناعة السويسرية انهيار الصناعة الألمانية فوثبوا واحتلوا مكان ألمانيا ، ووجد الألمان من العلماء والخبراء والمهندسين الفارين من ألمانيا ترحيباً بهم هنا ، وعقوداً مهيأة للانتفاع بهم ، وهم يساعدون المصانع السويسرية الآن على إنتاج

كل البضائع والمواد التي كانت تصنع في ألمانيا .
وقد بلغ من رخاء سويسرا أنها استطاعت منذ سنة ١٩٤٥ أن تقرض
فرنسا وبريطانيا وبلجيكا وهولندا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ، ولكن على
الرغم من كل هذا الرخاء الذي كان الفضل فيه لدقة الرقابة الحكومية على
الأسعار ، لم ترتفع تكاليف المعيشة إلا ٥٣ ٪ على ما كانت عليه
سنة ١٩٣٩ ؛ فلا عجب إذا كانت سويسرا قد خلت من اضطرابات
العمل والعمال ، وساد السلام في كل مكان إذا استثنينا اضطرابات قليلة
في منطقة زوريخ .

وهكذا نجت سويسرا من ويلات الحرب العالمية الثانية ، بل
خدمتها الحرب ، وهي تستعد لأول موسم شتوي حقيقي في زمن السلام ، ومع
أن الموسم لم يبلغ ما كان منتظراً للأسباب التي ذكرتها ، فإن الأندية
والدوائر تعرض ببرامج شبيهة ببرامج ما قبل الحرب .

* * *

وقد اجتذبت سان موريتز العالمية الشهرة بالزحليقة ومبارياتها وضروب
السباق المختلفة عدداً كبيراً من السياح البريطانيين على الرغم من القيود
المالية ، أكثرهم من الشيوخ أو الصغار الذين تروح أعمارهم بين الثانية
عشرة والسادسة عشرة . أما الشباب من الرجال والنساء فيما بين العشرين
والخامسة والعشرين — فلا يزالون في صفوف القوات العسكرية في الخارج ،
ففي وسع القارئ أن يدرك أن الحياة الاجتماعية الليلية ليست ممتعة بالقياس
إلى أيام ما قبل الحرب .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ١٩٧٠/٤٠٠٣

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠

الكتاب
المقدم

اقرأ

ماذا نستخرج من البرول

دكتور هورنج وهبة العفي

تقدم

٤ كتب للأستاذ محمد التابعى

● بعض من عرفت

قصص حقيقية من واقع حياة المؤلف وهى « بعض » من عرف
لأنه لاتزال هناك كثيرات لم يكتب قصته معهن أو قصصهن معه
٣٥ قرشاً

● جريمة الموسم

قصة أثارت اهتمام الناس واعتقدوا أنها حقيقية وقد أخرجها
التلفزيون فى ١٢ حلقة
٣٠ قرشاً

● عندما نحب

قصة شاب يعرف ماهو الواجب . . ماهو الضمير . . التضحية
. . . الفداء . . من أجل من يحب
٣٠ قرشاً

● لماذا قتل

شاب ميسور الحال ومكتمل الصحة والعافية يقتل رجلاً لم
يسمع باسمه إلا فى صباح يوم ارتكاب الجريمة وبرغم اعترافه فإنه
لم يفصح عن الأسباب . . لماذا ؟
٢٥ قرشاً

خذالمعارف دارالمعارف